مُغامرات

بِنتُ دَنُّو

تأليف علي بن هادية و بلحسن آلبليش

تصوير عياد بن حسين



الشركة التونسية للتوزيع

مغامرات

بنت دنو

تأليف علي بن هادية و بلحسن البليش

تصوير عياد بن حسين

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

(بِنْتُ دَنُّو) عَجُوزٌ ، نَاقِصَةُ ٱلْخَلْقِ وَٱلْخُلُقِ . كَانَتْ تَنْطِقُ ٱلرَّاءَ نُونًا ، وَتَرْتَكِزُ مَوَاقِفُ مُعَامَلَاتِهَا لِزَوْجِهَا ، وَلِبَنَاتِهَا ٱلْمُتَزَوِّجَاتِ ، عَلَى شُذُوذٍ غَرِيبٍ ، وَجَهْلٍ مُطْبِقٍ ، وَسَخَافَةِ رَأْيٍ ، كَوَّنَتْ مِنْهَا جَدَّاتُنَا حِكَايَةً نَادِرَةً ، تَوَارَثَتْ قَصَّهَا ٱلْأَجْيَالُ ٱللَّاحِقَةُ عَنِ ٱلْأَجْيَالِ ٱلسَّابِقَةِ ، لِلتَّبْشِيعِ بِغَبَاوَتِهَا ، وَٱلتَّحْذِيرِ مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِي حُمْقٍ وَبَلَاهَةٍ ، يَجُرَّانِ ٱلنَّكْبَةَ عَلَى صَاحِبِهِمَا ، وَٱلْبَلَاءَ عَلَى أَهْلِهِ وَذَوِيهِ ، مِثْلَمَا جَرَّاهُ عَلَى :

(1) « بَطَلَةِ حِكَايَتِنَا » « بِنْتِ دَنُّو » ٱلْمَشْؤُومَةِ ، ٱلَّتِي كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلَاكَ ٱلْقَلْبِ إِلَّا وَزَادَتْ هُمُومَهُ ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ ، مَنْبُوذَةً ، مَذْمُومَةً !

وَعَلَى :

(2) زَوْجهَا ٱلْمحْرُوم مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعَائِلِيَّةِ ، وَٱلْمُتَبَرِّم مِمَّا سَبَّبَتْهُ لَهُ مِنْ مُصِيبَةٍ ، وَبَلِيَّةٍ بَعْدَ ٱرْتِبَاطِ بَنَاتِهِ ٱلسَّبْعِ بِٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ .

وَعَلَى :

(3) بَنَاتِهَا ٱلسَّبْعِ ٱلْمُطْمَئِنَّاتِ ٱلْمَغْرُورَاتِ . . . ٱللاَّتِي جَعَلَتْ مِنْ نَعِيمِهِنَّ بُؤْساً ، وَمِنْ هَنَائِهِنَّ مَأْسَاةً كَانَتْ فُصُولُ حَوَادِثِهَا سِلْسِلَةً مِنَ ٱلْفَاجِعَاتِ !

وَهَا هِيَ ذِي حِكَايَتُهَا نَقُصُّهَا عَلَى كُلِّ مُتَشَوِّقٍ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِهَا ، عَلَّ فِي ذَلِكَ تَسْلِيَةً ، وَذِكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ !

أَضْحَى « ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ » زَوْجُ « بِنْتِ دَنُّو » مُتَأَلِّماً مِنْ وَضْعِيَّتِهِ، بَعْدَ زَوَاجِ بَنَاتِهِ ، يَعِيشُ فِي مَنْزِلٍ يَسُودُهُ ٱلسُّكُونُ ، وَلاَ يَسْمَعُ فِيهِ ٱلسَّامِعُ حَرَكَةً وَلاَ رِكْزاً (صَوْتاً خَفِيًّا) فَٱزْدَادَ غَمُّهُ ، وَسَاءَتْ أَخْلاَقُهُ ، لِسُوءِ تَصَرُّفِ زَوْجَتِهِ بِصُورَةٍ جَعَلَتْ غَبَاوَتَهَا (قِلَّةَ فِطْنَتِهَا) تَتَجَسَّمُ لَهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، بِمُوجِبِ مُبَاشَرَتِهَا بِنَفْسِهَا لِجَمِيعِ شُؤُونِهِ .

فَهِيَ تَصُبُّ لَهُ ٱلْقَهْوَةَ فِي « ٱلتَّبْسِي » عِوَضاً عَنْ ٱلْفِنْجَانِ ، فَيَتَقَلَّقُ ، وَيَصِيحُ :

– كَيْفَ تُقَدِّمِينَ لِي قَهْوَتِي فِي مِثْلِ هَذَا ٱلْإِنَاءِ ، فِي حِينِ أَنَّ ٱلْفِنْجَانَ مَوْجُودٌ فِي ٱلطَّبَقِ ؟



– لَمْ أَغْسِلْهُ ، وَلِذَلِكَ صَبَبْتُ ٱلْقَهْوَةَ فِي (ٱلتَّبْسِي) !

– آهِ ! يَا إِلَهِي مَا أَتْعَسَ حَظِّي ! لَقَدْ تَفَاقَمَ ٱلْأَمْرُ بَعْدَ بَنَاتِي !

وَهِيَ تَنْشُرُ ٱلثِّيَابَ ٱلْمُتَّسِخَةَ عَلَى ٱلْحَبْلِ ، وَتُعَرِّضُهَا لِلْمَطَرِ ،

طَالِبَةً مِنْهُ أَنْ يَتَكَفَّلَ بِغَسْلِهَا ، وَيُزِيلَ جَمِيعَ أَوْسَاخِهَا ، فَيَثُورُ ٱلْمِسْكِينُ ، وَيَصِيحُ :

ـ أَمَا لِهَذِهِ ٱلْحَمَاقَةِ مِنْ حَدٍّ ؟

لَكِنَّ (بِنْتَ دَنُّو) تُحَاوِلُ إِقْنَاعَهُ قَائِلَةً :

ـ إِنَّ غَسْلَ ٱلْمَطَرِ لِثِيَابِنَا ، سَيُرِيحُنِي مِنْ عَنَاءِ تَنْظِيفِهَا !

وَهِيَ تَطْبَخُ ٱلدَّجَاجَ بِدُونِ أَنْ تُحَمِّلَ نَفْسَهَا عَنَاءَ تَنْظِيفِهِ مِنْ رِيشِهِ ، وَقَطْعِ رَأْسِهِ ، وَرِجْلَيْهِ ، وَتَفْرِيغِهِ مِنْ أَمْعَائِهِ فَيَمْتَعِضُ ٱلْمِسْكِينُ مِنْ هَاتِهِ ٱلْحَمَاقَةِ ٱلْخَرْقَاءِ ، وَيَصْرُخُ قَائِلاً :

ـ عَجَباً ! كَيْفَ تُطْبَخُ ٱلدَّجَاجَةُ هَكَذَا كَامِلَةً دُونَ مَسِّهَا ؟ آهِ ! يَا بَنَاتِي ! تَعَالَيْنَ ، وَٱنْظُرْنَ أَبَاكُنَّ كَيْفَ سَاءَتْ حَالُهُ بَعْدَكُنَّ !

لَكِنَّ « بِنْتَ دَنُّو » تُحَاوِلُ تَهْدِئَتَهُ ، وَتَسْكِينَ غَضَبِهِ قَائِلَةً :

ـ إِنَّمَا فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ لِتَبْقَى ٱلدَّجَاجَةُ كَامِلَةً دُونَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهَا شَيْءٌ ! !

وَيُوقِفُهَا ٱلزَّوْجُ ٱلْمِسْكِينُ عَلَى غَلْطَتِهَا ، فَتَتَأَكَّدُ أَخِيراً أَنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلَّذِي طَبَخَتْهُ ، هُوَ بِحَقٍّ مِمَّا لَا يُقْبِلُ أَحَدٌ عَلَى تَنَاوُلِهِ !

لِذَلِكَ وَعَدَتْهُ بِأَنَّهَا سَتَتَنَبَّهُ فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ لِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَتَجَنَّبَ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغْضِبَهُ ، وَأَنْ تُفَكِّرَ مَلِيًّا ، قَبْلَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى أَيِّ عَمَلٍ مِنْ ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي تَقُومُ بِهَا .

وَٱرْتَاحَ « ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ » لِهَذَا ٱلْوَعْدِ ٱلْمُطَمْئِنِ ، فَٱشْتَرَى بِمَا ٱدَّخَرَهُ مِنْ مَالٍ ، كَمِّيَّةً مِنَ ٱلصُّوفِ مِثْلَمَا تَعَوَّدَ ذَلِكَ ، يَوْمَ كَانَتْ بَنَاتُهُ يَعْمُرْنَ ٱلدَّارَ ، وَيَمْلَأْنَهَا حَرَكَةً وَنَشَاطاً وَإِنْتَاجاً ، وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ :

– يَا « بِنْتَ دَنُّو » يَا صَاحِبَةَ ٱلْجَوْدَةِ وَٱلْإِتْقَانِ ، أُرِيدُ أَنْ تَصْنَعِي لَنَا مِنْ هَذَا ٱلصُّوفِ ٱلَّذِي ٱشْتَرَيْتُهُ أَكْسِيَةً وَأَغْطِيَةً نَتَدَفَّأُ بِهَا فِي ٱلْبَقِيَّةِ ٱلْبَاقِيَةِ مِنْ فَصْلِ ٱلشِّتَاءِ ، وَبُرْنُساً جَدِيداً « لِحِمْدَانِكِ » يَتَبَخْتَرُ بِهِ أَمَامَ أَصْحَابِهِ . ثُمَّ هَمْهَمَ (تَكَلَّمَ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ) بِصَوْتٍ خَافِتٍ :

يَجِبُ أَنْ أَمْدَحَهَا لَعَلَّ ٱللهَ يَهْدِيهَا ، وَيَرْفَعُ عَنْ بَصَرِهَا غَشَاوَةَ غَبَاوَتِهَا .

فَطَرِبَتْ لِإِطْرَائِهِ (لِلْمُبَالَغَةِ فِي مَدْحِهِ) وَرَحَّبَتْ بِثَنَائِهِ (مَدْحِهِ) وَأَخَذَتْ تَقُولُ لَهُ : كُنْ هَانِيءَ ٱلْبَالِ فَإِنِّي سَأَسْتَعْمِلُهُ

كُلَّهُ فِيمَا طَلَبْتَ ، حَتَّى لَا تَبْقَى مِنْهُ شَعْرَةٌ وَاحِدَةٌ . وَٱغْتَرَّ « ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ » بِهَذَا ٱلْجَوَابِ ٱللَّطِيفِ ، وَظَنَّ أَنَّهَا ٱسْتَفَادَتْ مِنَ ٱلْأَخْطَاءِ ٱلسَّابِقَةِ ، وَٱتَّعَظَتْ (ٱنْتَصَحَتْ) بِنَصَائِحِهِ وَإِرْشَادِهِ ، وَبِمَا تَلَقَّتْهُ مِنْ دُرُوسِ ٱلْحَيَاةِ ! فَخَرَجَ إِلَى عَمَلِهِ مُرْتَاحَ ٱلْبَالِ ، مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ ، وَنَهَضَتْ زَوْجَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمُبَاشَرَةِ عَمَلِهَا فَوَقَفَتْ أَمَامَ ٱلصُّوفِ ، وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ . . . وَتُفَكِّرُ . . . وَتُقَدِّرُ . . . وَأَخِيراً . . . ٱسْتَنْتَجَتْ طَرِيقَةَ ٱلْحَلِّ ٱلْمَنْشُودِ .

أَوْقَدَتِ ٱلتَّنُّورَ ، وَٱتَّخَذَتْ مِنْ نِيرَانِهِ ٱسْماً لِٱمْرَأَةٍ خَيَالِيَّةٍ أَسْمَتْهَا « جَذْوَةَ حَمْرَاءَ » وَجَعَلَتْ تُحَادِثُهَا وَتَعْتَبِرُ حَسِيسَهَا (صَوْتَهَا) أَجْوِبَةً لَهَا . وَبَعْدَ مَا أَوْصَتْهَا بِصُنْعِ بُرْنُسٍ ، وَجُبَّةٍ ، وَعَبَاءَةٍ ، حَمَلَتِ ٱلصُّوفَ وَأَلْقَتْ بِهِ فِي ٱلتَّنُّورِ ، وَهِيَ تَنْصَحُ ، وَتُعِيدُ ٱلنَّصِيحَةَ : أُوصِيكِ يَا « جَذْوَةُ حَمْرَاءُ » بِٱلْجَوْدَةِ وَٱلْإِتْقَانِ ، كَيْ يَفْرَحَ زَوْجِي ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْ أَنَّنِي مَتِينَةُ ٱلذِّرَاعِ طَوِيلَةُ ٱلْبَاعِ (كَرِيمَةٌ مُقْتَدِرَةٌ) ، وَأَنْ أَشْكُرَهُ لِسَيِّدَةِ ٱلْمِلَاحِ ، لَمْ يَذْهَبْ أَدْرَاجَ ٱلرِّيَاحِ !

وَأَكَلَتِ ٱلنَّارُ ٱلصُّوفَ ، مِثْلَمَا تَأْكُلُ ٱلْحَطَبَ ، حَتَّى صَارَ

كُومَةً مِنْ رَمَادٍ ...! فَمَا كَانَ مِنْ « بِنْتِ دَنُّو » إِلاَّ أَنْ صَاحَتْ عَلَى صَاحِبَتِهَا « جَذْوَةَ حَمْرَاءَ » :

أَيْنَ صُوفِي يَا غَبِيَّةُ ! أَيْنَ ٱلْبُرْنُسُ ! وَٱلْجُبَّةُ ؟ وَٱلْعَبَاءَةُ يَا حَمْقَاءُ ؟

أَتَظُنِّينَ أَنَّنِي غَبِيَّةٌ مِثْلُكِ ؟ وَأَنَّ فِي مَقْدُورِكِ أَنْ تَحْتَالِي



عَلَيَّ ، فَتُعَوِّضِي صُوفِي بِالرَّمَادِ ؟ دُونَ أَنْ أَنْتَبِهَ إِلَى خِداعِكِ ، وَمَكْرِكِ ؟

أَبَداً ! لَنْ أَنْخَدِعَ بِكِ ، وَلَنْ أَسْتَسْلِمَ إِلَيْكِ !

يَا (جَذْوَةُ حَمْرَاءُ) الْمَاكِرَةُ ! رُدِّي إِلَيَّ صُوفِي ، سَلِّمِي إِلَيَّ الْبُرْنُسَ ، وَالْجُبَّةَ ، وَالْعَبَاءَةَ وَإِلاَّ نَسَفْتُكِ ! (قَلَعْتُكِ مِنْ أَصْلِكِ)

لَكِنَّ النَّارَ خَمَدَتْ ، وَهَدَأَ حَسِيسُهَا !

لِذَلِكَ ، ثَارَتْ ثَائِرَةُ « بِنْتِ دَنُّو » وَهَاجَتْ وَمَاجَتْ ، وَصَاحَتْ بِخُنَّتِهَا :

« يَا جَذْوَةُ حَمْرَاءُ » إِنَّكِ تَلْعَبِينَ بِالنَّارِ !

أَيَّتُهَا الْمُغَفَّلَةُ الْبَلْهَاءُ !

اعْلَمِي أَنَّكِ لَنْ تُفْلِتِي مِنْ عِقَابِي إِذَا لَمْ تَرُدِّي إِلَيَّ صُوفِي !

وَارْتَمَتْ عَلَى الْفَأْسِ ، وَأَهْوَتْ بِهَا عَلَى التَّنُّورِ تُهَدِّمُهُ تَهْدِيماً ، حَتَّى حَفَرَتْهُ ، وَظَهَرَتْ لَهَا فِيهِ قِدْرٌ ، عَالَجَتْهَا حَتَّى أَخْرَجَتْهَا ، وَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْ غِطَائِهَا ، أَخَذَتْ تُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ مَا فِيهَا ، وَتَدْعُو عَلَى مَنْ خَبَّأَهَا بِالشَّرِّ قَائِلَةً :

مَا أَشَدَّ بَلَادَتَهُ ! إِنَّهُ يُعْطِي قِيمَةً لِقُشُورِ الرُّمَّانِ ، فَيَضَعُهَا

فِي هَذِهِ ٱلْقِـدْرِ ، وَيُخبِّئُهَـا تَحْتَ ٱلتَّنُّـورِ ! وَمَا عَلِمَتِ ٱلْغَبِيَّـةُ ٱلْمِسْكِينَةُ أَنَّهَا ٱكْتَشَفَتْ كَنْزاً (مَالاً مَدْفُوناً فِي ٱلْأَرْضِ) وَأَنَّ مَا حَسِبَتْهُ قُشُورَ رُمَّانٍ ، لَمْ يَكُنْ فِي حَقِيقَـةِ ٱلْأَمْـرِ وَٱلْوَاقِـعِ إِلاَّ دَنَانِيرَ ذَهَبِيَّـةً كَانَتْ نُقُـوداً عِنْـدَ بَعْضِ ٱلْأَجْيَـالِ ٱلْقَـدِيمَةِ ٱلسَّابِقَةِ .

وَحَمَلَتْهَا بِتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ إِلَى ٱلسَّقِيفَةِ نَظَراً لِثِقَلِهَا،وَهْيَ عَازِمَةٌ عَلَى ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهَا . وَبَيْنَمَا هِيَ وَاقِفَةٌ أَمَامَهَا سَابِحَةٌ فِي بَحْـرٍ مِنَ ٱلتَّفْكِيـرِ ، إِذَا بِٱلْبَائِـعِ ٱلْمُتَجَوِّلِ يَمُرُّ بِهَـا وَهْوَ يُنَادِي :

ـ عِنْدِي ٱلشَّمْعُ ، عِنْدِي ٱللُّبَـانُ ، عِنْدِي كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْ أَسْـوِرَةٍ ، وَأَقْـرَاطٍ ، وَعُطُـورٍ وَ ... فَفَتَحَتْ « بِنْتُ دَنُّو » ٱلْبَابَ وَنَادَتْ هَذَا ٱلْبَائِعَ ٱلْمُتَجَوِّلَ وَسَأَلَتْهُ :

ـ يَا رَجُلُ ! هَلْ تَبِيعُ سِلْعَتَكَ بِقُشُورِ ٱلرُّمَّانِ ؟

فَقَالَ لَهَا : أَرِينِيهَا ...

فَغَرَفَتْ كَمِّيَّةً مِلْءَ كَفَّيْهَا وَقَدَّمَتْهَا إِلَيْهِ ...

وَمَا أَنْ تَحَصَّلَ عَلَيْهَا ، حَتَّى تَرَكَ حِمَارَهُ ، وَحَامِلَتَهُ وَأَطْلَقَ سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ ، وَهْـوَ لَا يَكَادُ يُصَـدِّقُ ، وَهْيَ بِدَوْرِهَا مَدْهُوشَةٌ

مِنْ هُرُوبِهِ ، تَصِيحُ وَتُنَادِي :

أَيُّهَا ٱلْبَائِعُ ٱلْغَبِيُّ ! مَا بَالُكَ ؟ تَعَالَ وَخُذْ حِمَارَكَ وَسِلْعَتَكَ !

عَجَباً إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ! لَقَدْ هَرَبَ ! وَقَدْ كَانَ فِي نِيَّتِي أَنْ أَزِيدَهُ !

ثُمَّ أَدْخَلَتِ ٱلْحِمَارَ وَٱلسِّلْعَةَ إِلَى ٱلسَّقِيفَةِ ، وَهْيَ مَغْمُورَةٌ بِنَشْوَةِ ٱلْاِنْتِصَارِ ، تَقُولُ وَتُرَدِّدُ :



لَقَدْ رَبِحتُ الصَّفْقَةَ ، وَخسِرَ الْجَبَانُ !

مَا أَسْعَدَنِي بِهَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ !

أَكُلُّ هَذَا لِي وَحْدِي ؟

أَهَذَا الْحِمَارُ ، وَجَمِيعُ هَذِهِ السِّلَعِ ، بِجُزْءٍ يَسِيرٍ مِنْ قُشُورِ هَذَا الرُّمَّانِ ؟

وَعَثَرَتْ ـ أَثْنَاءَ تَفْتِيشِهَا ـ عَلَى كَمِّيَّةٍ وَافِرَةٍ مِنَ الشَّمْعِ وَجَدَتْهَا رَخْوَةً ، قَابِلَةً لِلتَّكْيِيفِ ، فَفَكَّرَتْ فِي صُنْعِ دُمْيَةٍ تَتَسَلَّى بِهَا ، وَتُؤْنِسُهَا فِي وَحْدَتِهَا . فَشَرَعَتْ لِحِينِهَا فِي عَجْنِ الشَّمْعِ ، وَتَصْوِيرِ التِّمْثَالِ ، وَتَجْسِيمِهِ ، ثُمَّ كَيَّفَتْ دُمْيَةً أُخْرَى ، اعْتَبَرَتْهَا خَادِمَتَهَا وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : (سَأُوصِدُ الْبَابَ ، وَأُبْقِي الْخَادِمَةَ (مَسْعُودَةَ) بِجَانِبِهِ لِتَفْتَحَهُ لِزَوْجِي مُعْلِنَةً النِّفَاسَ (الْوِلَادَةَ) بِمَوْلُودِي الْجَدِيدِ (مَبْرُوكٍ) إِذْ أَنَّ زَوْجِي سَيَفْرَحُ لَا شَكَّ ، بِهَذَا الْمَوْلُودِ الذَّكَرِ الَّذِي طَالَمَا تَمَنَّاهُ .

وَاسْتَلْقَتْ عَلَى الْفِرَاشِ ، وَبِجَانِبِهَا (مَبْرُوكُهَا) وَهِيَ تُنَاغِيهِ (تُكَلِّمُهُ بِمَا يُعْجِبُهُ) مُنَغِّمَةً عِبَارَتَهَا ، مُرَنِّمَةً قَوْلَهَا ...

وَنَسِيَتْ (الْعَمَّ حِمْدَانَ) . . وَالصُّوفَ . . . وَالْبَائِعَ

ٱلْمُتَجَوِّلَ . . . وَقُشُورَ ٱلرُّمَّانِ . . . وَٱلْحِمَارَ . . . وَٱلسِّلْعَةَ . . .

وَبَقِيَتْ هَكَذَا حَتَّى عَادَ زَوْجُهَا ٱلْمِسْكِينُ مِنْ عَمَلِهِ ، فَوَجَدَ ٱلْبَابَ مُوصَداً ، وَأَخَذَ يَطْرُقُهُ وَهْيَ تَسْمَعُ وَتُجِيبُ :

يَا مَسْعُودَةُ ، ٱفْتَحِي بَابَ ٱلدَّارِ لِسَيِّدِكِ !

وَأَخِيراً بَعْدَ مَا ٱسْتَبْطَأَ قُدُومَهَا ، قَصَدَ جِيرَانَهُ وَطَلَبَ مِنْهُمُ ٱلسَّمَاحَ لَهُ بِٱلصُّعُودِ إِلَى ٱلسَّطْحِ . فَمَكَّنُوهُ مِنْ ذَلِكَ . وَعِنْدَمَا أَشْرَفَ عَلَى فِنَاءِ دَارِهِ ، رَأَى حِمَاراً يَتَجَوَّلُ حُرًّا طَلِيقاً وَنَادَى زَوْجَتَهُ ، فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهَا نُفَسَاءُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى مُغَادَرَةِ ٱلْفِرَاشِ ، وَٱكْتَفَتْ بِتَوْبِيخِ ٱلْخَادِمَةِ « مَسْعُودَةَ » عَلَى عَدَمِ طَاعَتِهَا ،



وَنُهُوضِهَا لِفَتْحِ ٱلْبَابِ لِسَيِّدِهَا . عِنْدَ ذَلِكَ ، طَلَبَ (ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ) سُلَّماً مِنْ جِيرَانِهِ ، وَنَزَلَ مِنْ دَرَجِهِ ، حَتَّى بَلَغَ وَسَطَ ٱلدَّارِ .

وَلَمَّا دَخَلَ ٱلْبَيْتَ ، وَجَدَ زَوْجَتَهُ مَعْصُوبَةَ ٱلرَّأْسِ تَمْضَغُ ٱللُّبَانَ ، وَهِيَ تُرْضِعُ « مَبْرُوكَهَا » وَتُنَاغِيهِ .

فَبُهِتَ مِنْ هَذَا ٱلْمَنْظَرِ ، وَصَاحَ بِهَا : مَاذَا أَصَابَكِ ؟ مَا ٱلَّذِي حَلَّ بِكِ ؟

لِمَنْ هَذَا ٱلْحِمَارُ ٱلْمُتَجَوِّلُ فِي وَسَطِ ٱلدَّارِ ؟

فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا فَعَلَتْهُ فِي غِيَابِهِ : مَصِيرِ ٱلصُّوفِ وَكَيْفَ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ شَعْرَةً وَاحِدَةً . . . عِقَابِ (جَذْوَةَ حَمْرَاءَ) . . . قِدْرِ قُشُورِ ٱلرُّمَّانِ . . . غَبَاوَةِ ٱلْبَائِعِ ٱلْمُتَجَوِّلِ . . . ثُمَّ غُنْمِهَا ٱلْحِمَارَ وَٱلسِّلْعَةَ . . . وَأَخِيراً أُنْسِهَا بِخَادِمَتِهَا مَسْعُودَةَ . . . وَفِلْذَةِ كَبِدِهَا (مَبْرُوكٍ) ٱلْمَوْلُودِ ٱلذَّكَرِ . . . وَٱحْتَارَ (ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ) فِي أَمْرِهِ وَخَرَجَ فِي سُرْعَةِ ٱلْبَرْقِ إِلَى ٱلتَّنُّورِ ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ٱلصُّوفِ ٱلْمَحْرُوقِ ، وَرَأَى ٱلْجُدْرَانَ مُسْوَدَّةً بِٱلدُّخَانِ ، وَوَجَدَ ٱلتَّنُّورَ مُهَدَّماً مُخَرَّباً ، مَحْفُوراً . فَلَمْ يُطِقْ صَبْراً ، وَعَجَّلَ جَرْياً إِلَى ٱلسَّقِيفَةِ لِيَرَى قِدْرَ قُشُورِ ٱلرُّمَّانِ . فَسَقَطَ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَغْشِيّاً

عَلَيْـهِ ، لِأَنَّـهُ فوجِئَ بِمَرْأَى الـذَّهَبِ ٱلْوَهَّـاجِ فِي وَسَطِهَـا ...
وَٱسْتَفَـاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ ، فَأَخذَ كَمِّيَّةً كَانَ يَلْمَسُهَا ، وَيَتَأَمَّلُهَا ،
وَيُعِيدُ لَمْسَهَا بِأَصَابِعِـهِ ، بَيْنَ مُصَـدِّقٍ ، وَمُكَذِّبٍ ، وَهْوَ يَصِيحُ
كَٱلْمَجْنُونِ : هُوَ ... هُوَ ... إِنَّهُ ٱلذَّهَبُ ... ٱلْوَهَّاجُ .

يَا غَـبِيَّةُ ! إِنَّهَا دَنَانِيرُ وَلَيْستْ بِقُشُورِ الرُّمَّانِ ...

تَعْساً لكِ ! يَا سَبَبَ تَعَاسَتِي وَشَقَائِي ... !

لَقَدْ أَعْطَيْتِ كَمِّيَّـةً مِنْ هَـاتِهِ ٱلدَّنَانِيـرِ إِلَى ذَلِكَ ٱلْبَـائِعِ
ٱلْمُتَجَوِّلِ ، بِعُنْوَانِ قُشُورِ ٱلرُّمَّانِ ... فَهَرَبَ مُكْتَفِياً بِهَا لِأَنَّهَـا
تُغْنِيهِ ... وَيْلِي مِنْكِ ، وَوَيْلِي مِنْهُ لِأَنَّهُ يَعْـرِفُنَـا ، وَلَا نَعْـرِفُهُ ،
وَمَتَى أَمْكَنَ أَنْ يَمَسَّنَا بِسُوءٍ لَمْ يَتَرَدَّدْ ، وَأَلْحَقَ بِنَا ٱلضَّرَرَ ... !

وَفِي هَذِهِ ٱلْغَمْرَةِ مِنَ ٱلْغَضَبِ وَٱلْجُنُونِ ، نَزَلَتْ (بِنْتُ دَنُّو)
مِنْ فِرَاشِهَا ، وَقَـدَّمَتْ (مَبْرُوكَهَا) لِأَبِيهِ كَيْ يُقَبِّـلَهُ ، وَيَفْـرَحَ
بِمَوْلُودِهِ ٱلدُّمْيَةِ ! !

فَٱنْتَشَلَهُ مِنْ يَـدِهَـا ، وَأَلْقَـى بِـهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ، وَدَاسَـهُ ،
وَدَاسَ ٱلْخَادِمَةَ (مَسْعُودَةَ) وَأَطْرَدَ زَوْجَتَهُ وَهْوَ يَقُولُ :
حَقًّا إِنَّ (بِنْتَ دَنُّو) ٱلْمَشْؤُومَةَ ،

كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلَاكَ ٱلْقَلْبِ ، زَادَتْ هُمُومُهُ .

وَخَرَجَتْ مِنْهُ ، مَنْبُوذَةً ، مَذْمُومَةً !

ثُمَّ قَرَّرَ ٱلإِرْتِحَالَ عَنِ ٱلْبَلَدِ إِلَى مَكَانٍ مَجْهُولٍ ، طَلَباً لِلرَّاحَةِ ، وَهُدُوءِ ٱلْبَالِ .

وَإِزَاءَ قَرَارِ ٱلطَّرْدِ ٱلْحَاسِمِ وَٱلْعَزْمِ عَلَى ٱلسَّفَرِ إِلَى ٱلْخَارِجِ ، أَجَابَتْ (بِنْتُ دَنُّو) زَوْجَهَا فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلِاعْتِزَازِ : سَأَجْمَعُ أَدْبَاشِي ، وَأُلِمُّ شَتَاتِي !



وَأَقْصِدُ (عَائِشَةَ) ، أَحَنَّ ، وَأَبَرَّ بَنَاتِي !

وَفِعْلاً ، حَمَلَتْ مَا يَعِزُّ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْأَدْبَاشِ ، وَخَرَجَتْ ... قَاصِدَةً دَارَ ٱبْنَتِهَا ٱلأُولَى (عَائِشَةَ) زَوْجَةِ ٱلْفَلاَّحِ (مَحْمُودٍ) فَفَرِحَتْ أَشَدَّ ٱلْفَرَحِ بِزِيَارَتِهَا ، وَبَعْدَ سُؤَالِهَا عَنْ أَحْوَالِهَا ، وَأَحْوَالِ أَبِيهَا ، أَخَذَتِ ٱلْأُمُّ تَتَذَمَّرُ ، وَتَشْكُو مُعَامَلَةَ زَوْجِهَا ٱلَّتِي أَصْبَحَتْ لاَ تُطَاقُ ، بَعْدَ فِرَاقِ بَنَاتِهِ حَيْثُ صَارَ يُعَاكِسُهَا ، وَيُشَاكِسُهَا (يُخَالِفُهَا وَيُعَاسِرُهَا) وَيُحَقِّرُ جَمِيعَ مَا تَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ نَافِعَةٍ ، صَالِحَةٍ ، وَلَمْ يَعُدْ يَرُوقُهُ مَنْظَرُهَا ، وَكَلاَمُهَا ، وَحَتَّى إِشَارَاتُهَا ! ! ! وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَّرَ طَرْدَهَا ، فَبَارَحَتْ مَنْزِلَ عُمُرِهَا مُكْرَهَةً ، وَقَصَدَتْ (عَائِشَةَ) عَلَّهَا تَتَخَلَّصُ مِنْ أَعْبَاءِ مَسْؤُولِيَّةِ ٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ مُدَّةً تُقَضِّيهَا فِي ضِيَافَةِ ٱبْنَتِهَا .

أَسِفَتْ عَائِشَةُ لِشَكْوَى أُمِّهَا ، فَلاَطَفَتْهَا ، وَهَدَّأَتْ مِنْ آلاَمِهَا ، وَأَحْزَانِهَا ، وَأَكْرَمَتْ وِفَادَتَهَا (قُدُومَهَا) وَطَلَبَتْ مِنْهَا أَلاَّ تُشْغِلَ بَالَهَا بِأَيِّ عَمَلٍ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ ، وَأَنْ تَتَفَرَّغَ إِلَى عِبَادَتِهَا ، وَصَلَوَاتِهَا ، لِتَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ صِهْرِهَا (زَوْجِ ٱلْبِنْتِ) مَحْمُودٍ .

فَفَرِحَتِ ٱلْأُمُّ بِذَلِكَ ، وَبَقِيَتْ أَيَّاماً لَمْ تَتَدَخَّلْ أَثْنَاءَهَا فِي أَيِّ شَأْنٍ مِنَ ٱلشُّؤُونِ ... وَيَا لَيْتَهَا ٱسْتَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ ... غَيْرَ أَنَّ ٱلطَّبْعَ يَغْلِبُ ٱلتَّطَبُّعَ ، وَمَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ ، لِذَلِكَ دَبَّ فِي نَفْسِ (بِنْتِ دَنُّو) دَبِيبُ ٱلتَّدَخُّلِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَسَأَلَتْ (عَائِشَةَ) عِنْدَمَا رَأَتْ بَيْتاً مَمْلُوءاً بِأَكْيَاسِ ٱلْقَمْحِ ، عَنْ سَبَبِ ٱدِّخَارِ هَذِهِ ٱلْكَمِّيَّةِ ٱلْهَائِلَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَرَ مِثْلَهَا لِمِقْدَارِهَا فِي حَيَاتِهَا .

فَأَعْلَمَتْهَا بِأَنَّ زَوْجَهَا فَلَّاحٌ ، وَأَنَّ ٱلْفَلَّاحِينَ مِنْ عَادَتِهِمُ ٱدِّخَارُ ٱلْقُمُوحِ « لِمَارِسَ ٱلطَّوِيلِ » حَتَّى إِذَا جَاءَ وَاجَهُوهُ بِهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلطَّلَبِ .

بَدَأَتْ (بِنْتُ دَنُّو) تَهْتَمُّ بِشَأْنِ هَذَا ٱلْقَمْحِ ، وَرَأَتْ فِي وُجُودِهِ عِبْئاً ثَقِيلاً يُضَايِقُ ٱبْنَتَهَا ، وَشَرَعَتْ تُفَكِّرُ فِي مَصِيرِهِ ، وَفِيمَا يُرِيحُ ٱبْنَتَهَا مِنْهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ رَافَقَتِ ٱبْنَتُهَا زَوْجَهَا إِلَى ٱلضَّيْعَةِ ، لِتَقْضِيَ بِهَا يَوْماً ، وَكَانَتْ مُطْمَئِنَّةَ ٱلْبَالِ عَلَى مَنْزِلِهَا ، حَيْثُ إِنَّهَا تَرَكَتْ بِهِ أُمَّهَا . فَأَخَذَتْ هَذِهِ تُنَظِّفُ بُيُوتَهُ بَيْتاً بَيْتاً ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى

بَيْتِ ٱلْقَمْحِ ٱلْمُدَّخَـرِ .

وَهُنَا وَقَفَتْ تُفَكِّرُ ... وَتُفَكِّرُ ... وَتُقَدِّرُ .. وَأَخِيراً ...

ٱسْتَنْتَجَتْ طَـرِيقَةَ ٱلْحَلِّ ٱلْمَنْشُودِ !

يَجِـبُ أَلاَّ تَنْتَظِرَ ٱبْنَتِي قُدُومَ « مَارِسَ ٱلطَّـوِيلِ » وَإِذَنْ ، فَلأَخْرُجْ بِنَفْسِي ، وَلأُفَتِّشْ عَنْـهُ حَتَّى أَعْثُرَ عَلَيْهِ . . . وَوَقَفَتْ بِٱلْبَابِ تَسْتَعْـرِضُ ٱلْمَارِّينَ ، فَإِذَا بِرَجُلٍ طَـوِيلٍ يَسُوقُ عَرَبَـةً ، وَمَعَهُ مُعِينُهُ . فَٱسْتَبْشَرَتْ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

ـ لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا هُوَ (مَارِسُ ٱلطَّـوِيلُ) وَهَذِهِ هِيَ عَرَبَتُهُ ٱلَّتِي جَاءَ بِهَا لِنَقْلِ قُمُوحِهِ . فَٱسْتَوْقَفَتْهُ وَقَـالَتْ لَهُ : لَعَلَّكَ لَمْ تَهْتَدِ إِلَى ٱلْمَنْـزِلِ ؟

ـ أَيَّ مَنْـزِلٍ تَعْنِينَ يَا خَالَةُ ؟

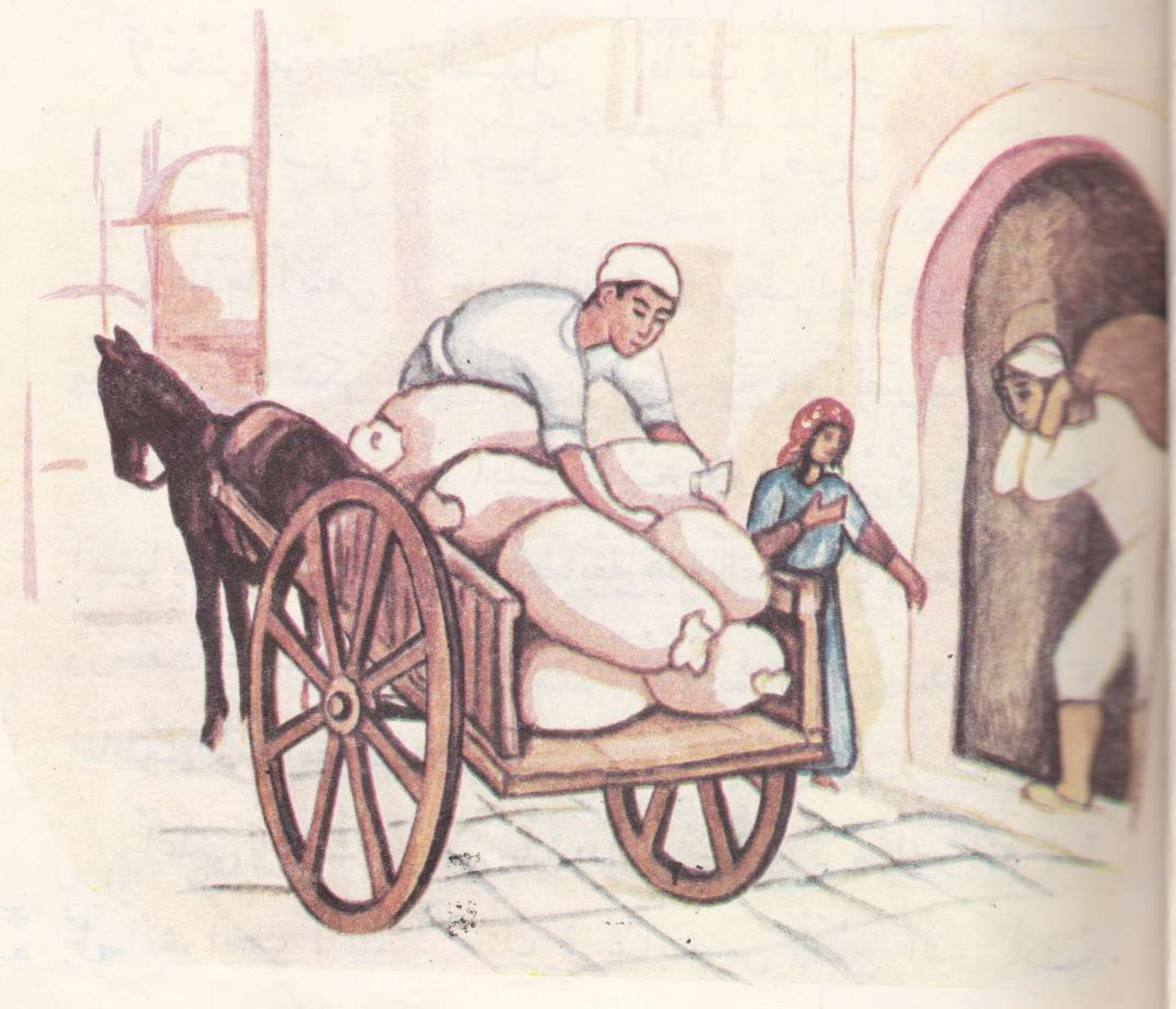
ـ ٱلْمَنْـزِلُ ٱلَّذِي يُوجَدُ بِهِ قَمْحُكَ ! ! أَلَـسْتَ أَنْتَ (مَارِسَ ٱلطَّـوِيلَ ؟)

ـ نَعَمْ أَنَا هُوَ (مَارِسُ ٱلطَّـوِيلُ) وَهَذَا (رِضْوَانُ) مُعِينِي يَشْهَدُ بِذَلِكَ .

إِذَنْ تَعَالَ مَعِي وَخُذْ قَمْحَكَ !

لَكِنْ لَيْسَ لِي قَمْحٌ عِنْدَ أَحدٍ !

ـ عَجَباً ! هَلْ إِنَّكَ لاَ تَنْقُلُ قَمْحَكَ إِلاَّ إِذَا ٱحْتَجْتَ أَنتَ وَطَلَبْتَهُ ؟ أَمَّا إِذَا ٱحتَجْنَا نَحْنُ إِلَى ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ وَطَلَبْنَا مِنْكَ نَقْلَهُ فَلاَ تَفعَلُ ؟



وَهُنَـــا أَخَذَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّـوِيلُ يُفَكِّرُ فِي هَذَا ٱلْعَـرْضِ وَمَـا سَيَسُوقُهُ إِلَيْـهِ مِنْ خَيْـرٍ فَأَوْقَفَ ٱلْعَرَبَـةَ أَمَـامَ ٱلدَّارِ ، وَأَخَـذَ يُخْـرِجُ ٱلْأَكْيَاسَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَمُعِينُهُ (رِضْوَانُ) يَضَعُهَـا عَلَيْهَا ، وَهْيَ تُنْشِدُ وَتَقُولُ :

تَعَـالَ يَا مَـارِسُ ٱلطَّـوِيـلْ   خُذْ قَمْحَكَ ٱلْآنَ ، مَارِسُ !
لَا تَخْشَ مِنْ عَابِـرِ ٱلسَّبِيلْ   فَأَنْتَ فِي ٱلْحَيِّ ، فَارِسُ !
عَجِّلْ ، وَأَسْـرِعْ ، أَيَا جَمِيلْ   فَإِنَّ (رِضْوَانَ) حَارِسُ !

وَعِنْدَمَا ٱنْتَهَى ٱلرَّجُلُ ٱلطَّـوِيلُ مِنْ إِخْـرَاجِ آخِـرِ كِيسٍ مِنَ ٱلْبَيْتِ ، شَكَرَ هَاتِهِ ٱلْعَجُوزَ ٱلْكَـرِيمَةَ ، وَٱنْصَرَفَ .

فَنَظَّفَتْ (بِنْتُ دُنُّو) بَيْتَ ٱلْقَمْـحِ ، وَهْيَ مَسْرُورَةٌ بِإِرَاحَـةِ ٱبْنَتِهَا مِمَّا كَانَتْ تُعَانِيهِ مِنْ مُضَايَقَةِ هَذَا ٱلْقَمْحِ لَهَا . وَمَرَّ ٱلْيَوْمُ ، وَرَجَعَتْ عَائِشَـةُ مِنَ ٱلضَّيْعَـةِ ، مَسْرُورَةً بِجَوْلَتِهَـا ، وَنُزْهَتِهَا ، فَقَاطَعَتْهَا أُمُّهَا بِقَوْلِهَا :

ٱعْلَمِي يَا عَائِشَةُ ، أَنَّنِي سَأَزِيدُكِ فَرْحَةً عَلَى فَرْحَتِكِ وَٱنْشِرَاحاً عَلَى ٱنْشِرَاحِكِ ! لَقَدْ أَرَحْتُكِ فِي غِيَابِكِ مِنَ ٱلْقَمْحِ ٱلَّذِي كَانَ

يضَايقُكِ ، وَسَلَّمْتُهُ إلَى صَاحِبِهِ ، « مَارِسَ ٱلطَّوِيلِ » وَنظَّفْتُ ٱلْبَيتَ . . .

وَٱرْتَبَكَتْ (عَائِشَةُ) أَوَّلَ ٱلْأَمْرِ ، وَلَمْ تُصَدِّقِ ٱلْخَبَرَ وَظَنَّتْ أَنَّ أُمَّهَا تَمْزَحُ ، لَكِنَّهَا بِمُجَرَّدِ دُخُولِهَا إلَى بَيْتِ ٱلْقَمْحِ أَخَذَتْ تَصِيحُ ، وَتَنْدُبُ حَظَّهَا وَتَقُولُ :

مَا أَشْأَمَ زِيَارَتَكِ يَا أُمَّاهُ !

لَقَدْ حَمَلْتِ إِلَيْنَا مَعَكِ ٱلْوَيْلَ وَٱلْهَلَاكَ !

فَبَادِرِي بِمُغَادَرَةِ ٱلْمَنْزِلِ ، قَبْلَ أَنْ تَحُلَّ كَارِثَةٌ ، أُفَضِّلُ أَنْ أَتَحَمَّلَ صَدْمَتَهَا أَنَا وَحْدِي !

ٱخْرُجِي ، فَقَدْ صَدَقَ أَبِي عِنْدَمَا قَالَ فِيكِ :

إِنَّ (بِنْتَ دَنُّو) ٱلْمَشْؤُومَةَ ،

كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلَاكَ ٱلْقَلْبِ ، زَادَتْ هُمُومَهُ ،

وَخَرَجَتْ مِنْهُ ، مَنْبُوذَةً ، مَذْمُومَةً !

وَتَعَجَّبَتْ « بِنْتُ دَنُّو » مِنْ مَوْقِفِ ٱبْنَتِهَا وَقَالَتْ :

عَجَبـاً وَٱللهِ ! أَسْعَى فِي صَالِحِ ٱلْغَيْرِ ، فَيُقَابَلُ صَنِيعِي بِالْجُحُودِ وَٱلنُّكْرَانِ !

سَأَجمَعُ أَدْبَاشِي ، وَأَلُمُّ شَتَاتِي ،
وَأَقْصِدُ (سَالِمَةَ) أَحنَّ وَأَبَرَّ بَنَاتِي !

وَخَرَجَتْ مُتَثَاقِلَةَ ٱلْخُطَى ، قَاصِدَةً دَارَ ٱبْنَتِهَا ٱلثَّانِيَةِ (سَالِمَةَ) زَوْجَةِ تَاجِرِ ٱلزُّيُوتِ ، صَالِحٍ .

وَلَمَّا دَخَلَتِ ٱقْتَبَلَتْهَا ٱبْنَتُهَا بِٱلتَّرْحِيبِ ، وَٱلتَّحِيَّةِ ٱلْحَارَّةِ ، وَبَادَرَتْهَا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ أَبِيهَا .

فَأَجْهَشَتْ بِٱلْبُكَاءِ ، وَقَالَتْ لَهَا : لَاشَكَّ أَنَّكِ تُحِبِّينَ أَبَاكِ أَكْثَرَ مِنِّي . ٱعْلَمِي أَنَّهُ سَافَرَ إِلَى ٱلْخَارِجِ ، وَأَنَّ حَيَاتِي مَعَهُ أَصْبَحَتْ لَاتُطَاقُ بَعْدَ خُرُوجِكُنَّ مِنَ ٱلدَّارِ ، وَأَصْبَحَتْ جَمِيعُ أَعْمَالِي ، وَأَقْوَالِي لَا تُعْجِبُهُ ، وَلَا تَرُوقُهُ .

وَبِمَا أَنَّنَا تَخَاصَمْنَا ، وَأَطْرَدَنِي مِنْ دَارِ عُمُرِي ، وَٱرْتَحَلَ هُوَ عَنِ ٱلْبَلَدِ ، قَصَدْتُكِ يَا سَالِمَةُ ٱلْحَنُونُ ، لِأُقَضِّيَ فِي ضِيَافَتِكِ أَيَّامًا ، آنَسُ فِيهَا بِكِ ، وَأَنْسَى بِهَا هُمُومِي ، وَآلَامِي ، وَأَحْزَانِي !

فَقَاطَعَتْهَا ٱبْنَتُهَا قَائِلَةً : عَلَى ٱلرَّحْبِ وَٱلسَّعَةِ يَا أُمَّاهُ ! أَقِيمِي حِذْوِي مَا شِئْتِ ، وَأَرِيحِي نَفْسَكِ مِنْ كُلِّ عَنَاءٍ ! فَفَرِحَتِ ٱلْأُمُّ بِعَرْضِ ٱبْنَتِهَا ، وَشَكَرَتْهَا عَلَى حُسْنِ ٱقْتِبَالِهَا ، وَقَضَّتْ أَيَّامًا

تَنْعَمُ فِيهَا بِالرَّاحَةِ ، وَتَتَمَتَّعُ بِهُدُوءِ ٱلْبَالِ ، وَنِسْيَانِ ٱلْمَاضِي ...

وَذَهَبَتِ ٱبْنَتُهَا فِي أَحَدِ ٱلْأَيَّامِ إِلَى ٱلْحَمَّامِ ، وَتَرَكَتْ أُمَّهَا وَحِيدَةً فِي ٱلدَّارِ ، فَدَبَّ فِي نَفْسِهَا دَبِيبُ ٱلتَّدَخُّلِ كَعَادَتِهَا مِنْ جَدِيدٍ ، وَأَخَذَتْ تَدْخُلُ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ ، حَتَّى نَزَلَتْ إِلَى ٱلدِّهْلِيزِ ، فَوَجَدَتْ بِهِ جِرَاراً مَلْأَى زَيْتاً ، مُغَطَّاةً كُلَّهَا ، فَأَخَذَتْ تَرْفَعُ غِطَاءَ ٱلْوَاحِدَةِ بَعْدَ ٱلْأُخْرَى ، وَكَانَتْ كُلَّمَا نَظَرَتْ مِنْ فَمِ ٱلْجَرَّةِ رَأَتْ صُورَةَ وَجْهِهَا عَلَى أَدِيمِ ٱلزَّيْتِ ، فَيَأْخُذُهَا ٱلتَّعَجُّبُ مِمَّا تَرَى ، وَتُسْرِعُ إِلَى ٱلِانْتِقَامِ لِشَرَفِ ٱبْنَتِهَا ٱلْغَبِيَّةِ ٱلَّتِي غَابَ عَنْهَا أَنَّ زَوْجَهَا مُزَاحِمُهَا بِضَرَائِرَ عَدِيدَاتٍ ، جَعَلَ ٱلْجِرَارَ مَسَاكِنَ لَهُنَّ !

فَقَصَدَتِ ٱلْمَطْبَخَ ، وَأَخَذَتْ عَمُودَ ٱلْمِهْرَاسِ ، وَٱنْهَالَتْ ضَرْباً عَلَى ٱلْجِرَارِ ، فَكَسَّرَتْهَا ، وَتَدَفَّقَتْ مِنْهَا سُيُولُ ٱلزَّيْتِ تَدَفُّقاً غَمَرَ ٱرْتِفَاعُهُ مِقْدَارَ مِتْرٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ . وَهُنَاكَ جَرَّةٌ فَارِغَةٌ حَمَلَهَا ٱلزَّيْتُ فَطَفَتْ فَوْقَهُ ، وَٱتَّخَذَتْ مِنْهَا (بِنْتُ دَنُّو) مَرْكَباً صَعِدَتْ عَلَيْهِ ، وَرَكِبَتْهُ ، وَتَخَيَّلَتْ نَفْسَهَا قَائِداً لِسَفِينَةٍ تَسِيرُ فِي ٱلْبَحْرِ فَجَعَلَتْ تَضْرِبُ ٱلْجَرَّةَ بِعَصاً بِيَدِهَا وَتَقُولُ :

تَقَدَّمْ دُونَ خَوْفٍ يا رَائِس !

هَكَذَا تَقْضِي (بِنْتُ دَنُّو) عَلَى ٱلْعَرَائِس !

وَتُرِيحُ ٱبْنَتَهَا مِنَ ٱلضَّرَائِرِ وَٱلدَّسَائِس !



وَعَادَتِ ٱلْبِنْتُ مِنَ ٱلْحَمَّامِ ، فَلَمْ تَجِدْ أُمَّهَا فِي ٱلدَّارِ. وَلَمَّا نَادَتْهَا ، أَجَابَتْهَا مِنَ ٱلدِّهْلِيزِ :

يَا سَالِمَةُ ٱلْغَبِيَّةُ ٱلْمَغْرُورَةُ ! ٱنْزِلِي إِلَى ٱلدِّهْلِيزِ وَٱنْظُرِي !

وَأَسْرَعَتِ ٱلْمِسْكِينَةُ وَنَظَرَتْ ، وَلَكِنْ يَا لَهَوْلِ مَا نَظَرَتْ !

رَأَتْ أُمَّهَا مُلَطَّخَةَ الثِّيَابِ بِالزَّيْتِ، رَاكِبَةً عَلَى الْجَرَّةِ، وَبِيَدِهَا عَصاً، وَهِيَ غَيْرُ مُبَالِيَةٍ بِعَاقِبَةِ مَا جَنَتْهُ يَدَاهَا فَلَطَمَتِ ٱبْنَتُهَا وَجْهَهَا، وَصَاحَتْ فَزِعَةً مُرتَاعَةً مِنَ الْمُصِيبَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِهَا. ثُمَّ أَخْرَجَتْ أُمَّهَا مِنَ الدِّهْلِيزِ وَأَبْدَلَتْ ثِيَابَهَا، وَطَلَبَتْ مِنْهَا بِإِلْحَاحٍ أَنْ تُغَادِرَ دَارَهَا فِي الْحَالِ قَبْلَ رُجُوعِ زَوْجِهَا فَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَبَالاً وَتَحُلُّ نَقْمَةُ الزَّوْجِ بِالْعَائِلَةِ كُلِّهَا! إِذَنْ، غَادِرِي الدَّارَ فَقَدْ صَدَقَ أَبِي عِنْدَمَا قَالَ فِيكِ:

إِنَّ (بِنْتَ دَنُّو) الْمَشْؤُومَةَ،

كُلَّمَا حَاوَلَتِ امْتِلَاكَ الْقَلْبِ، زَادَتْ هُمُومَهُ،

وَخَرَجَتْ مِنْهُ مَنْبُوذَةً مَذْمُومَةً!

فَلَمْ تُبَالِ بِكَلَامِهَا وَقَالَتْ لَهَا:

مَا أَشَدَّ غَبَاوَتَكِ يَا ابْنَتِي الْمَغْرُورَةَ!

إِنَّ الضَّرَائِرَ يُزَاحِمْنَكِ الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ، وَلَمَّا أَرَحْتُكِ مِنْهُنَّ، وَمِنْ دَسَائِسِهِنَّ، وَسَعَيْتُ فِي جَلْبِ السَّعَادَةِ إِلَيْكِ، قَابَلْتِ مَعْرُوفِي بِالْجُحُودِ وَالنَّقْمَةِ، وَالنُّكْرَانِ، وَأَطْرَدْتِنِي شَرَّ طِرْدَةٍ...!

سَأَجْمَعُ أَدْبَاشِي وَأَلُمُّ شَتَاتِي،

وَأَقْصِدُ (فَاطِمَةَ) أَحَنَّ وَأَبَرَّ بَنَاتِي !

وَغَادَرَتِ ٱلْمَنْزِلَ مُتَثَاقِلَةَ ٱلْخُطَى ، قَاصِدَةً دَارَ ٱبْنَتِهَا ٱلثَّالِثَةِ (فَاطِمَةَ) زَوْجَةِ ٱلْهَادِي ٱلْبَدَّالِ (بَائِعِ ٱلْمَأْكُولَاتِ وَٱلْمَوَادِّ ٱلْغِذَائِيَّةِ)

وَلَمَّا وَصَلَتْ ، طَرَقَتِ ٱلْبَابَ بِعُكَّازَتِهَا ، طَرْقاً مُتَوَاصِلاً ٱضْطَرَبَتْ مِنْهُ ٱلْبِنْتُ فَاطِمَةُ .

فَخَرَجَتْ تَوّاً تَسْتَفْسِرُ عَنْ مُوجِبِ هَذَا الطَّرْقِ ٱلْغَرِيبِ ، ٱلْمُنْبِئِ عَنْ حُدُوثِ أَمْرٍ هَامٍّ ،قَدْ يَكُونُ مَكْرُوهاً وَسُرْعَانَ مَا عَرَفَتْ صَوْتَ أُمِّهَا حَتَّى عَجَّلَتْ بِفَتْحِ ٱلْبَابِ ، وَٱرْتَمَتْ عَلَيْهَا تُشْبِعُهَا عِنَاقاً وَتَقْبِيلاً ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَنْتَظِرُ هَاتِهِ ٱلزِّيَارَةَ ٱلْمُفَاجِئَةَ ، وَجَالَ بِخَاطِرِهَا أَنَّ أَبَاهَا قَدْ يَكُونُ مَرِيضاً ، فَبَادَرَتْهَا بِٱلسُّؤَالِ عَنْهُ وَعَنْ أَحْوَالِهِ . فَدَفَعَتْهَا (بِنْتُ دَنُّو) وَهْيَ تَقُولُ : كَأَنِّي بِكُنَّ تُرَجِّحْنَ حُبَّ أَبِيكُنَّ عَلَيَّ . لَكِنَّ فَاطِمَةَ بَقِيَتْ مُصِرَّةً عَلَى أَنَّ حُبَّهَا لَهَا يُعَادِلُ حُبَّهَا لِأَبِيهَا ، وَأَنْ لَا فَرْقَ عِنْدَهَا بَيْنَهُمَا.

فَقَاطَعَتْهَا أُمُّهَا قَائِلَةً:

إِنَّ أَبَاكِ يَا ٱبْنَتِي قَدْ أَصْبَحَ صَعْبَ ٱلْمُعَاشَرَةِ بَعْدَكُنَّ ، كَثِيرَ

التَّدَلُّلِ ، وَالتَّشَرُّطِ ، سَرِيعَ الْغَضَبِ غَيْرَ رَاضٍ عَنْ جَمِيعِ مَا أَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ لِإِسْعَادِهِ ، وَجَلْبِ رِضَاهُ . وَلَيْسَ فِي أَعْمَالِي إِلَّا الْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ لِازْدِهَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ وَتَمْتِينِ أَوَاصِرِ الْمَوَدَّةِ ، وَتَدْعِيمِ أَرْكَانِ الْاِسْتِقْرَارِ وَالْمُعَاشَرَةِ .

وَبِمَا أَنَّنَا تَخَاصَمْنَا ، وَأَطْرَدَنِي مِنْ دَارِ عُمُرِي ، وَارْتَحَلَ عَنِ الْبَلَدِ ، قَصَدْتُكِ يَا فَاطِمَةُ الْحَنُونُ ، لِأُقَضِّيَ فِي ضِيَافَتِكِ أَيَّاماً ، أَنْسَى فِيهَا هُمُومِي ، وَآلَامِي ، وَأَحْزَانِي ! فَقَالَتْ لَهَا ابْنَتُهَا فَاطِمَةُ :

أَتَيْتِ أَهْلاً ، وَنَزَلْتِ سَهْلاً ، فَأَقِيمِي عِنْدِي مَا شِئْتِ ، فَقَدْ حَلَّتْ مَعَكِ الْبَرَكَةُ وَالْخَيْرُ ، وَسَيَكُونُ زَوْجِي الْهَادِي مَسْرُوراً بِزِيَارَتِكِ الْمَيْمُونَةِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِتَشْرِيفِكِ مَحَلَّهُ بَعْدَ غَيْبَةٍ طَوِيلَةٍ !

وَحَضَرَ الزَّوْجُ ، فَفَرِحَ بِمَقْدَمِهَا ، وَأَخَذَ يُلَاطِفُهَا وَيُحَقِّقُ طَلَبَاتِهَا ، وَيُوصِيهَا بِالرَّاحَةِ التَّامَّةِ ، وَعَدَمِ الْاِشْتِغَالِ بِأَيِّ شَيْءٍ ، وَيُوصِي زَوْجَتَهُ بِمُرَاعَاةِ وَضْعِيَّةِ أُمِّهَا ، وَعَدَمِ تَكْلِيفِهَا بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُتْعِبَهَا بَدَنِيًّا أَوْ يُضَايِقَ حَالَتَهَا نَفْسَانِيًّا . . .

وَقَضَّتْ (بِنْتُ دَنُّو) أَيَّاماً سَارَّةً ، خَالِيَةً مِنْ كُلِّ مُنَغِّصٍ وَمُكَدِّرٍ ، نَاسِيَةً سِلْسِلَةَ شَرِيطِ مَاضِيهَا ٱلْحَافِلِ بِمَنَاظِرِ . . . قُشُورِ ٱلرُّمَّانِ . . . وَقَمْحِ مَارِسَ « ٱلطَّوِيلِ » . . . وَٱلضَّرَائِرِ ٱلسَّاكِنَاتِ بِجِرَارِ ٱلزَّيْتِ . . . إِلَى آخِرِ مَا جَلَبَ إِلَيْهَا ٱلشَّقَاءَ مِنْ طَرَفِ ٱلآخَرِينَ ، فِي حِينِ أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَسْعَى إِلاَّ فِي إِسْعَادِهِمْ...!

ثُمَّ حَلَّ مَوْعِدُ يَوْمِ ٱلسُّوقِ ٱلأُسْبُوعِيَّةِ ، وَأَخَذَ صِهْرُهَا ٱلْهَادِي يُخْرِجُ ٱلْبَضَائِعَ ، وَٱلْمَوَادَّ ٱلْغِذَائِيَّةَ ، مِنْ بَيْتٍ بِٱلطَّابِقِ ٱلْعُلْوِيِّ إِلَى مَتْجَرِهِ ، فَتَعَجَّبَتْ (بِنْتُ دَنُّو) مِنْ وُجُودِ هَذَا ٱلْخَلِيطِ مِنَ ٱلصَّنَادِيقِ وَٱلْقَرَاطِيسِ وَٱلأَكْيَاسِ ،وَٱلظُّرُوفِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلأَشْكَالِ وَٱلأَلْوَانِ ، فَسَأَلَتِ ٱبْنَتَهَا فِي حَيْرَةٍ وَٱنْدِهَاشٍ :

مَا ٱلَّذِي يَصْنَعُ زَوْجُكِ بِكُلِّ هَذَا ؟

إِنَّهَا سِلَعٌ ، وَبَضَائِعُ يَعْرِضُهَا فِي كُلِّ يَوْمِ سُوقٍ لِجَلْبِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ ، كَيْ يَجِدَ كُلُّ طَالِبٍ بُغْيَتَهُ عِنْدَهُ ، فَيَأْخُذُهَا وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ رَاحَتُهُ ، وَرِبْحُنَا .

إِذَنْ فَتَحْقِيقُ رَاحَةِ ٱلنَّاسِ ، وَرِبْحُكُمْ ، يَتَوَقَّفَانِ عَلَى ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ هَذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ، فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ ؟

نَعَمْ ! هُوَ ذَاكَ بِعَيْنِهِ يَا أَمَّاهُ !

وَنَظَرَتْ « بِنْتُ دَنُّو » إِلَى هٰذِهِ ٱلْبَضَائِعِ ٱلْمُكَدَّسِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ بِهٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُثْقَلِ بِوُجُودِهَا ...

وَبَدَأَ ٱلتَّفْكِيرُ فِي مَصِيرِهَا يَأْخُذُ مَكَانَهُ فِي خَاطِرِهَا، مَا دَامَ ذَلِكَ يَجْلُبُ ٱلرَّاحَةَ لِلْغَيْرِ، وَيُحَقِّقُ ٱلرِّبْحَ لِٱبْنَتِهَا. وَبَاتَتْ لَيْلَتَهَا تُفَكِّرُ ... وَتُفَكِّرُ . لِأَنَّ دَبِيبَ ٱلتَّدَخُّلِ قَدْ دَبَّ فِي نَفْسِهَا مِنْ جَدِيدٍ.

وَيَشَاءُ ٱلْقَدَرُ أَنْ يُسَافِرَ ٱلزَّوْجُ لِلْمُشَارَكَةِ فِي سُوقٍ أُسْبُوعِيَّةٍ بِقَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ، وَأَنْ تَذْهَبَ مَعَهُ زَوْجَتُهُ مَدْعُوَّةً لِحُضُورِ عُرْسٍ فِي تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ، فَتَبْقَى مَسْؤُولِيَّةُ ٱلْمَنْزِلِ فِي تَصَرُّفِ ٱلْأُمِّ وَحْدَهَا، فَتَصْعَدُ إِلَى ٱلطَّابِقِ ٱلْعُلْوِيِّ، وَتَفْتَحُ بَيْتَ ٱلْبَضَائِعِ، وَتَجِدُ فِيهِ نَافِذَةً تَفْتَحُ إِلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلْعُمُومِيَّةِ، فَتُطِلُّ مِنْهَا، وَتَرَى أَفْوَاجاً مِنْ ٱلْمَارَّةِ، وَتَلْتَفِتُ فَتَرَى أَكْدَاساً مِنَ ٱلْبَضَائِعِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ !

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخَذَتْ تُفَكِّرُ ... وَتُفَكِّرُ ... وَتُقَدِّرُ ... وَأَخِيراً ... ٱسْتَنْتَجَتْ طَرِيقَ ٱلْحَلِّ ٱلْمَنْشُودِ ! يَجِبُ أَنْ أَجْلِبَ

اَلرَّاحَةَ لِلنَّاسِ ، وَالرِّبْحَ لِابْنَتِي ، وَلِزَوْجِهَا الَّذِي أَكْرَمَنِي ، وَآوَانِي ، وَسَعِدَ بِإِقَامَتِي عِنْدَهُ ...



وَفَتَحَتِ النَّافِذَةَ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا ، وَأَخَذَتْ تُنَادِي بِأَعْلَى

صَوْتَهَا ، وَتُلْقِي بِالْبِضَاعَةِ عَلَى الْأَيْدِي الْمُمْتَدَّةِ لِالْتِقَاطِهَا :

تَعَالَوْا أَيُّهَا النَّاسُ فَمَا فِي فِعْلَتِي بَاسُ !
فَهَذَا سُكَّرٌ حُلْوٌ وَذَا فُولٌ وَبِسْبَاسُ !
وَحَلْوَى كُلُّهَا لَوْزٌ وَحَلَّابٌ وَكَسْكَاسُ !
وَزَيْتُونٌ وَصَابُونٌ وَحِنَّاءٌ وَأَكْيَاسُ !
تَعَالَوْا أَيُّهَا النَّاسُ فَمَا فِي فِعْلِكُمْ بَاسُ

وَكَانُوا كِبَاراً وَصِغَاراً يَتَزَاحَمُونَ وَيَتَوَافَدُونَ عَلَى الْمَحَلِّ لِالْتِقَاطِ مَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّافِذَةِ الْمَفْتُوحَةِ مِنْ مُخْتَلِفِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَفَضَّلَتْ بِهَا عَلَيْهِمْ هَاتِهِ الْمَرْأَةُ الْخَيِّرَةُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، ثُمَّ سَعْياً لِجَلْبِ رَاحَتِهِمْ وَتَحْقِيقِ الرِّبْحِ لِابْنَتِهَا .

وَفَرَغَ الْبَيْتُ مِمَّا فِيهِ، فَشَرَعَتْ « بِنْتُ دَنُّو » فِي تَنْظِيفِهِ، وَتَرْتِيبِهِ ، وَهِيَ مَسْرُورَةٌ بِمَا أَنْجَزَتْهُ مِنْ عَمَلٍ مُفِيدٍ مُثْمِرٍ .

وَرَجَعَتِ الْبِنْتُ الْمَغْرُورَةُ مِنْ حَفْلَةِ الْعُرْسِ الَّتِي حَضَرَتْهَا وَهِيَ مُنْشَرِحَةُ الصَّدْرِ لِلْيَوْمِ الْمُمْتِعِ الَّذِي قَضَّتْهُ فِي الطَّرَبِ وَالتَّسْلِيَةِ ، فَقَاطَعَتْهَا أُمُّهَا مُبَشِّرَةً إِيَّاهَا بِأَنَّهَا سَتَزِيدُهَا فَرْحَةً

عَلَى فَرْحَتِهَا ، وَسُرُوراً عَلَى سُرُورِهَا حَيْثُ كَفَتْهَا مَؤُونَةَ جَلْبِ ٱلرَّاحَةِ لِلنَّاسِ ، وَٱلرِّبْحِ لِأَهْلِ ٱلدَّارِ فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ .

وَلَمْ تَفْهَمِ ٱلْبِنْتُ ٱلْمِسْكِينَةُ ٱلْمَقْصُودَ مِنْ كَلَامِ أُمِّهَا، فَسَأَلَتْهَا ٱلشَّرْحَ وَٱلْإِيضَاحَ . فَقَالَتْ هَذِهِ مُفْتَخِرَةً

ـ لَقَدْ فَتَحَتُ نَافِذَةَ بَيْتِ ٱلْبِضَاعَةِ، وَخَلَّصْتُكِ ـ وَٱلْحَمْدُ لِلّهِ ـ مِمَّا كُنْتِ تَتَضَايَقِينَ مِنْهُ، وَعَجَزْتِ عَنِ ٱلتَّفَصِّي مِنْهُ فِي ٱلْأَمَدِ ٱلْقَصِيرِ .

وَمَا أَنْ رَأَتِ ٱبْنَتُهَا ٱلْبَيْتَ فَارِغاً حَقًّا حَتَّى صَاحَتْ :

ـ وَاوَيْلَتَاهُ ! مَاذَا أَصَابَنِي ؟

لَقَدْ أَفْلَسَ زَوْجِي ، وَأَظْلَمَ مُسْتَقْبَلِي !

أُمَّاهُ ! مَا ٱلَّذِي أَصَابَكِ حَتَّى تَسَبَّبْتِ لِي فِي هَذِهِ ٱلْكَارِثَةِ ؟

أَيَّةَ كَارِثَةٍ تَعْنِينَ يَا غَبِيَّةُ ؟ أَتَظُنِّينَ أَنَّ مَا قُمْتُ بِهِ يُعْتَبَرُ كَارِثَةً ؟ إِنَّكِ لَمَجْنُونَةٌ ! ٱنْظُرِي إِلَى ٱلْبَيْتِ كَيْفَ أَصْبَحَ نَظِيفاً مُرَتَّباً وَاسِعاً ... ؟ !

ـ أُمَّاهُ ! بَادِرِي بِٱلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا ٱلْمَحَلِّ ، فَقَدْ أَصْبَحْتِ نَذِيرَ شُؤْمٍ ، وَمَصْدَرَ شَقَاءٍ ، لِعَائِلَةٍ كَانَ يَسُودُهَا ٱلْوِفَاقُ ،

وَٱلْأَمْنُ ، وَٱلْاِطْمِئْنَانُ ... !

ـ أَتظنِّينَ أَنَّني فِي حَاجَةٍ إلى ٱلْبَقَاءِ عِنْدَكِ ؟ عَجَباً وَٱللهِ ! أَحقِّقُ لكِ رَغْبَتَكِ فِي تَحْقِيقِ ٱلرِّبْحِ لِلْعَائِلَةِ بِٱلتَّخَلُّص مِنْ بَضَائِعكِ فِي أَمَدٍ قَصِيرٍ ، فَتُقَابِلِينَ جَمِيلِي بِٱلتَّخَلُّصِ مِنِّي !

ـ قُلْتُ لَكِ بَادِرِي بِٱلْخُرُوجِ ، وَأَسْرِعِي فَلَمْ يَعُدْ لَكِ مَقَامٌ فِي هَذَا ٱلْمَحَلِّ، وَلاَ وَجْهٌ تُقَابِلِينَ بِهِ زَوْجِي ٱلَّذِي أَكْرَمَكِ وَصَنَعَ مَعَكِ ٱلْمَعْرُوفَ !

غَادِرِي ٱلدَّارَ حَالاً ، فَقَدْ صَدَقَ أَبِي عِنْدَمَا قَالَ فِيكِ :

إِنَّ (بِنْتَ دَنُّو) ٱلْمَشْؤُومَةَ ،

كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلاَكَ ٱلْقَلْبِ ، زَادَتْ هُمُومُهُ ،

وَخَرَجَتْ مِنْهُ ، مَنْبُوذَةً ، مَذْمُومَةً !

وَتَسْخَرُ ٱلْأُمُّ مِنْهَا ، فَتَقُولُ غَيْرَ عَابِئَةٍ بِشَيْءٍ :

هَدِّئِي رَوْعَكِ سَأَجْمَعُ أَدْبَاشِي وَأَلُمُّ شَتَاتِي ! وَأَقْصِدُ (حَلِيمَةَ) أَحَنَّ وَأَبَرَّ بَنَاتِي!

وَغَادَرَتِ ٱلْمَنْزِلَ ، مُتَثَاقِلَةَ ٱلْخُطَى ، قَاصِدَةً دَارَ ٱبْنَتِهَا ٱلرَّابِعَةِ (حَلِيمَةَ) زَوْجَةِ ٱلنَّسَّاجِ (عِمْرَانَ) فَمَرَّتْ عَلَى ٱلْمَقْبَرَةِ،

وكَانَ ٱلْفَصْلُ رَبِيعاً وَٱلْأَزْهَارُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلْأَلْوَانِ مُنْتَشِرَةً هُنا وَهُنَاكَ بَيْنَ ٱلْقُبُورِ . وَقَدْ رَاقَهَا ٱلْمَنْظَرُ ، وَحُسْنُ أَلْوَانِ هَاتِهِ ٱلزُّهُورِ ، فَٱحْتَفَظَتْ بِهِ فِي ذَاكِرَتِهَا .

وَوَاصَلَتْ طَرِيقَهَا حَتَّى بَلَغَتْ دَارَ ٱبْنَتِهَا . فَأَخَذَتْ تَطْرُقُ ٱلْبَابَ حَتَّى فَتَحَتْهُ لَهَا (حَلِيمَةُ) وَٱرْتَمَتْ عَلَيْهَا تُشْبِعُهَا عِنَاقاً وَتَقْبِيلاً ، وَهِيَ تَقُولُ :

ـ مَرْحَى مَرْحَى ! بِأُمِّي ٱلْعَزِيزَةِ ! يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ سَارَّةٍ، ٱنْشَرَحَ لَهَا قَلْبِي ! كَيْفَ حَالُ أَبِي ؟

ـ أَتَسْأَلِينَ عَنْ حَالِ أَبِيكِ ، وَلَا تَسْأَلِينَ عَنْ حَالِ أُمِّكِ ؟

أَنْتِ ٱلْآنَ أَمَامِي ، أَمَّا أَبِي فَإِنَّهُ غَائِبٌ عَنِّي !

ـ لَقَدْ سَافَرَ إِلَى ٱلْخَارِجِ بَعْدَمَا خَاصَمَنِي،وَأَصْبَحَ يُنَاصِبُنِي ٱلْعِدَاءَ بَعْدَ خُرُوجِكُنَّ مِنَ ٱلدَّارِ ، ! وَزَادَ فِي ٱلتَّدَلُّلِ، وَٱلتَّشَرُّطِ، فَأَصْبَحَ يُضَايِقُنِي كُلَّ حِينٍ ، أَنَا ٱلْعَجُوزَ ٱلْمُسِنَّةَ ، لِأَنِّي لَمْ أَلِدْ لَهُ إِلَى حَدِّ ٱلْآنَ وَلَداً ذَكَراً يَخْلُفُهُ ، وَيُخَلِّدُ ذِكْرَهُ عَلَى زَعْمِهِ ، وَلِذَلِكَ أَطْرَدَنِي ، وَبَارَحَ ٱلْبَلَدَ ...

فَخَرَجْتُ بَعْدَمَا أَقْفَلَ ٱلدَّارَ وَأَخَذَ ٱلْمِفْتَاحَ مَعَهُ ، وَقَصَدْتُكِ

يا حليمةُ ٱلْحَنُونُ ، لِأُقَضِّيَ فِي ضِيَافَتِكِ أَيَّاماً ، آنَسُ فِيهَا بِكِ ، وَأَنْسَى هُمُومِي ، وَآلاَمِي ، وَأَحْزَانِي ! فَقَالَتْ لَهَا ٱبْنَتُهَا حَلِيمَةُ

- طِيبِي نَفْساً وَقَرِّي عَيْناً ، فَإِنَّ ٱبْنَتَكِ مَمْنُونَةٌ بِإِقَامَتِكِ عِنْدَهَا حَيْثُ تَحُلُّ مَعَكِ ٱلْبَرَكَةُ وَٱلْخَيْرُ . وَسَتَكُونُ زِيَارَتُكِ هَذِهِ خَبَراً سَارًّا لِزَوْجِي (عِمْرَانَ) ٱلَّذِي لَمْ يَرَكِ مُنْذُ زَمَانٍ ...

- مَازِلْتُ أَتَذَكَّرُ يَا بُنَيَّتِي ، أَنَّهُ كَثِيراً مَا كَانَ يَلْهَجُ بِذِكْرِي وَيُثْنِي عَلَى تَرْبِيَتِي ٱلَّتِي تَخَرَّجَ عَلَيْهَا مَثِيلاَتُكِ ، وَقَدْ ضُرِبَ بِهِنَّ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَلَدِ !

وَهَذَا هُوَ ٱلَّذِي لَمْ يَفْهَمْهُ أَبُوكِ ، ٱلَّذِي أَصْبَحَ يَرَى ٱسْتِقَامَتِي ٱعْوِجَاجاً ، وَجَوْدَةَ رَأْيِي سَخَافَةً وَحُمْقاً ، وَنَقَاوَةَ مَا تُنْتِجُهُ أَصَابِعِي ، قَذَارَةً وَوَسَخاً .

- سَكِّنِي غَضَبَكِ يَا أُمَّاهُ ، وَٱعْذِرِيهِ بِٱللهِ ، فَقَدْ شَعُرَ بِٱلْوَحْدَةِ بَعْدَنَا ، وَأَصْبَحَ حَسَّاساً ، رَقِيقَ ٱلْعَاطِفَةِ . فَلْيَقْضِ مُدَّةً فِي ٱلِاسْتِرَاحَةِ ، مَصْحُوباً بِٱلسَّلاَمَةِ ، فِي ٱلظَّعْنِ (ٱلسَّفَرِ) وَٱلإِقَامَةِ وَلْتَقْضِي أَنْتِ مَا شِئْتِ عِنْدَنَا مُرْتَاحَةَ ٱلْبَالِ ، قَرِيرَةَ ٱلْعَيْنِ .

وَفِعْلاً بَقِيَتْ (بِنْتُ دَنُّو) طِيلَةَ إِقَامَتِهَا مَحَلَّ حَفَاوَةِ ٱلْجَمِيعِ

حَتَّى دَخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ صِهْرُهَا (عِمْرَانُ) بَعْدَ مَا ٱنْتَهَى مِنْ نَسْجِ بَعْضِ ٱلْجِبَابِ لِحُرَفَائِهِ ، وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ : ٱحْتَفِظِي بِهَا حَتَّى يَعُودَ ٱلصَّبَّاغُ ٱلَّذِي تَعَوَّدْتُ أَنْ أَصْبَغَ عِنْدَهُ ، لِأَنَّهُ سَافَرَ إِلَى ٱلْعَاصِمَةِ لِلتَّزَوُّدِ مِنْ بَعْضِ مَوَادِّ ٱلصِّبَاغَةِ ٱلنَّاقِصَةِ . وَهُنَا جَالَ بِخَاطِرِ (بِنْتِ دَنُّو) مَنْظَرُ ٱلْمَقْبَرَةِ ، وَمَا تَتَحَلَّى بِهِ أَزْهَارُهَا مِنْ أَلْوَانٍ تَخْطِفُ ٱلْأَبْصَارَ ، وَدَبَّ دَبِيبُ ٱلتَّدَخُّلِ مِنْ جَدِيدٍ فِي نَفْسِهَا ، فَوَقَفَتْ أَمَامَ ٱلْجِبَابِ تُفَكِّرُ ... وَتُفَكِّرُ ... وَتُقَدِّرُ ... وَأَخِيراً ... ٱسْتَنْتَجَتِ ٱلْحَلَّ ٱلْمَنْشُودَ ... فَقَالَتْ لِٱبْنَتِهَا :

ـ لَقَدْ مَرَرْتُ وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَيْكِ بِصَبَّاغٍ مَاهِرٍ يَعْرِضُ أَلْوَاناً زَاهِيَةً أَعْجَبَتْنِي ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا سَتُعْجِبُ زَوْجَكِ ، عِنْدَ مَا يَرَاهَا فِي جِبَابِهِ . فَسَلِّمِيهَا إِلَيَّ ، وَتَأَكَّدِي مِنْ أَنَّنِي سَأَتَكَفَّلُ بِصَبْغِهَا

فَأَعْطَتْهَا ٱلْمَغْرُورَةُ مَا طَلَبَتْ ، وَخَرَجَتْ بِٱلْجِبَابِ قَاصِدَةً ٱلْمَقْبَرَةَ ، وَأَخَذَتْ تَنْشُرُهَا عَلَى ٱلزُّهُورِ ، بَيْنَ ٱلْقُبُورِ ، وَهِيَ تَقُولُ :

أَيُّهَا ٱلصَّبَّاغُ ٱلْمَاهِرُ ٱلْفَنَّانُ !

هذه جِبابُ صِهْرِي (عِمْرانَ)
فاصْبغْها لَهُ بِجَمِيعِ ٱلْأَلْوانِ



وَخُذْ أَجْرَكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ ٱلْأَثْمانِ !
ثُمَّ تَرَكَتْهَا فِي ٱلْمَقْبَرَةِ وَرَجَعَتْ إِلَى ٱلدَّارِ ...
وَمَرَّتْ بَعْضُ ٱلْأَيَّامِ ، وَأَلَحَّ (عِمْرَانُ) عَلَى زَوْجَتِهِ فِي إِحْضَارِ جِبَابِهِ ، فَأَلَحَّتْ بِدَوْرِهَا عَلَى أُمِّهَا ، وَطَلَبَتْ مِنْهَا ٱلذَّهَابَ إِلَى ٱلصَّبَّاغِ .

فَخَرَجَتْ (بِنت دَنُّو) وذَهبَتْ إلَى ٱلْمَقْبَرَةِ، ثُمَّ عادَتْ فارِغَةَ ٱلْيَدَيْنِ ، مُدَّعِيَةً أَنَّ ٱلصَّبَّاغَ قَدْ أَخَذَ ٱلْجِبَابَ وَٱمْتَنَعَ مِنْ إرْجاعِهَا إلَيْهَا .

فَطَلَبَتْ مِنْهَا مُرَافَقَتَهَا إلَيْهِ . وَما أَنْ وَصَلَتْ إلَى ٱلْمَقْبَرَةِ حَتَّى صُعِقَتْ وَكَادَ يُغْشَى عَلَيْهَا . فَأَخَذَتِ ٱلْأُمُّ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهَا وَتُشِيرُ إلَى ٱلْأَلْوَانِ بِإعْجَابٍ وَتَمْجِيدٍ، قَائِلَةً فِي ٱلْفَضَاءِ ٱلرَّحْبِ :

ـ أَيُّهَا ٱلصَّبَّاغُ لَوْ لَمْ تُعْجِبْنِي أَلْوَانُكَ ٱلزَّاهِيَةُ، لَمَا ٱخْتَرْتُكَ لِتَتَوَلَّى صَبْغَ جِبَابِ صِهْرِي . . . أَيُّهَا ٱلْغَدَّارُ ٱلْخَدَّاعُ ... أَرْجِعْ إلَيْنَا جِبَابَنَا وَإلَّا أَفْرَغْنَا قُدُورَكَ ، وَأَحْرَقْنَا مَصْبَغَتَكَ !!!

وَأَمَامَ هَذَا ٱلْهَذَيَانِ (ٱلتَّكَلُّمِ بِغَيْرِ مَعْقُولٍ) لَمْ يَسَعِ ٱلْبِنْتَ إلَّا أَنْ تَكْتُمَ غَيْظَهَا (شِدَّةَ غَضَبِهَا) وَأَنْ تَقُولَ لِأُمِّهَا :

ـ لَقَدْ تَسَبَّبْتِ لِي فِي نَكَدٍ عَائِلِيٍّ قَدْ يَنْتُجُ عَنْهُ طَلَاقِي مِنْ زَوْجِي وَفِرَاقِي لِبَيْتِي ... وَلِذَا يَجْدُرُ بِكِ أَنْ تُغَادِرِي مَنْزِلِي، وَأَلَّا تَعُودِي إلَيْهِ ، حَتَّى لَا تَحُلَّ بِكِ نِقْمَةُ زَوْجِي ، وَٱنْفِجَارُ بُرْكَانِ غَضَبِهِ . وَقَالَتْ صَدَقَ أَبِي عِنْدَمَا قَالَ :

إنَّ (بِنْتَ دَنُّو) ٱلْمَشْؤُومَةَ ،

كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلَاكَ ٱلْقَلْبِ ، زَادَتْ هُمُومَهُ ؛

وَخَرَجَتْ مِنْهُ ، مَنْبُوذَةً ، مَذْمُومَةً !

وَبِسَخَافَةِ رَأْيِهَا ٱلْمَعْهُودِ تَعَجَّبَتْ (بِنْتُ دَنُّو) مِنْ مُعَامَلَةِ ٱبْنَتِهَا ، وَطَرْدِهَا لَهَا .

فَٱنْتَشَلَتْ ثِيَابَهَا وَهْيَ تَقُولُ :

هَوِّنِي عَلَيْكِ ! سَأَجْمَعُ أَدْبَاشِي ، وَأَلُمُّ شَتَاتِي !

وَأَقْصِدُ (خَدِيجَةَ) ، أَحَنَّ ، وَأَبَرَّ بَنَاتِي !

وَغَادَرَتْ مَنْزِلَهَا مُتَثَاقِلَةَ ٱلْخُطَى ، قَاصِدَةً دَارَ ٱبْنَتِهَا ٱلْخَامِسَةِ (خَدِيجَةَ) زَوْجَةِ ٱلدَّجَاجِيِّ (بَائِعِ ٱلدَّجَاجِ) مَنْصُورٍ. وَلَمَّا وَصَلَتْ طَرَقَتِ ٱلْبَابَ ، فَفَتَحَتْهُ لَهَا ٱبْنَتُهَا ، وَٱرْتَمَتْ عَلَيْهَا تُشْبِعُهَا عِنَاقاً ، وَتَقْبِيلاً وَهْيَ تَقُولُ :

مَا أَسْعَدَ هٰذَا ٱلْيَوْمَ ٱلْمُبَارَكَ ! وَمَا أَسْعَدَنِي بِلِقَائِكِ يَا أُمَّاهُ ! وَبِزِيَارَتِكِ ٱلْمُفَاجِئَةِ بَعْدَ هٰذَا ٱلْغِيَابِ ٱلطَّوِيلِ ، يَا أُمِّي ٱلْحَنُونَ!

حَقًّا إِنَّهَا زِيَارَةٌ مُفَاجِئَةٌ لِأَنِّي أَتَيْتُكِ غَضْبَى مِنْ مُعَامَلَةِ أَبِيكِ إِيَّايَ حَيْثُ أَطْرَدَنِي مِنْ مَنْزِلِ عُمُرِي ، وَسَافَرَ إِلَى مَكَانٍ مَجْهُولٍ !

ـ عَجَباً ! كَيْفَ تَقُولِينَ إنَّ أَبِي يُعَامِلُكِ مُعَامَلَةً قَاسِيَةً مَعَ أَنَّهُ رَجُلٌ وَدِيعٌ ، حَسَنُ ٱلْمُعَامَلَةِ وَٱلْمُعَاشَرَةِ

ـ وَاحسْرَتَاهُ ! يَا خَدِيجَةُ ! لَقَدْ تَغَيَّرَتْ طِبَاعُهُ بَعْدَ خُرُوجِكُنَّ مِنَ ٱلدَّارِ، وَأَصْبَحَ يَرَى فِي وُجُودِي بِجَانِبِهِ خَطَراً عَلَى رَاحَتِهِ، وَأَمْنِهِ ، وَحَيَاتِهِ . . . فَكُلَّمَا طَلَبَ مِنِّي إحْضَارَ ٱلْأَبْيَضِ وَأَحْضَرْتُهُ إلَّا وَصَاحَ قَائِلاً . مَا هَذَا بِأَبْيَضَ هَذَا سَوَادٌ فِي سَوَادٍ ... وَكُلَّمَا قُلْتُ قَوْلاً لَيِّناً إلاَّ وَصَاحَ : مَاذَا أَسْمَعُ ! إنَّ فِي هَذَا ٱلْقَوْلِ غِلْظَةً وَحَمَاقَةً . . . ! وَهَكَذَا . . . فَلَيْلِي عِنْدَهُ نَهَارٌ . . وَنَهَارِي لَيْلٌ .. وَأَصْبَحَتِ ٱلْحَيَاةُ فِي دَارِنَا جَحِيماً لاَ يُطَاقُ . لِذَا قَرَّرْتُ زِيَارَتَكِ بَعْدَ مَا أَقْفَلَ ٱلدَّارَ ، وَأَطْرَدَنِي مِنْهَا عَسَايَ أَنْ أَحْظَى بِعَطْفِكِ يَا ٱبْنَتِي ، وَأَقْضِيَ فِي ضِيَافَتِكِ أَيَّاماً آنَسُ فِيهَا بِكِ ، وَأَنْسَى هُمُومِي ، وَآلاَمِي ، وَأَحْزَانِي !

فَٱبْتَسَمَتْ (خَدِيجَةُ) ٱبْتِسَامَةَ ٱلرِّضَا وَٱلْقَبُولِ وَقَالَتْ لَهَا : عَلَى ٱلرَّحْبِ وَٱلسَّعَةِ يَا أُمَّاهُ !

أَقِيمِي حِذْوِي مَا طَابَ لَكِ ٱلْمُقَامُ دُونَ أَنْ تُشْغِلِي بَالَكِ بِأَيِّ

شيءٍ ، إلَّا بِما يكُونُ فِيهِ هَناؤُكِ وَراحتُكِ . وَذاتَ يومٍ دَخلتْ مَعَ ٱبنَتِها إلى ٱلْخُمِّ (قفص ِ ٱلدَّجاجِ) فرأَتِ ٱلدَّجاجَ يرْفعُ رأْسهُ إلى السَّماءِ عندَما يشْربُ . فَٱمْتعَضتْ مِنْ هَذا ٱلْمَنْظَرِ ، وَتشاءَمت مِنْ هذهِ ٱلْحرَكةِ ، وَٱعْتقَدتْ أنَّ ٱلدَّجاجَ نكَّارٌ لِلْجَميلِ حيثُ إنَّ ٱبنتَها تُقدِّمُ لهُ ٱلْعلَفَ وَٱلْماءَ فإذا بِهِ يُقابِلُ معرُوفَها بِٱلدُّعاءِ



عَلَيْهَا بِٱلشَّرِّ . وَدَبَّ دَبِيبُ ٱلتَّدَخُّلِ فِي نَفْسِهَا مِنْ جَدِيدٍ فَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فِي أَمْرِ هَذَا ٱلدَّجَاجِ ، وَتُفَكِّرُ فِي مَصِيرِ ٱبْنَتِهَا مِنْ كَثْرَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهَا وَتُقَدِّرُ ... وَأَخِيراً ... ٱسْتَنْتَجَتْ طَرِيقَةَ ٱلْحَلِّ ٱلْمَنْشُودِ ... !

- يَجِبُ أَنْ أَقْطَعَ أَعْنَاقَهُ كَيْ أُرِيحَ ٱبْنَتِي مِنْ عَاقِبَةِ دُعَاءِ ٱلشَّرِّ عَلَيْهَا .

وَتَحَيَّنَتْ فُرْصَةَ غِيَابِ ٱبْنَتِهَا، فَدَخَلَتْ إِلَى ٱلْخُمِّ ، وَٱرْتَمَتْ عَلَى ٱلدَّجَاجِ تَقْبِضُ عَلَى ٱلْوَاحِدَةِ تِلْوَ ٱلْأُخْرَى، وَتَلْوِي عُنُقَهَا فَتَكْسِرُ عِظَامَهُ ، حَتَّى تَمُوتَ وَهِيَ تَقُولُ :

يَا دَجَاجَ ٱلسُّوءِ تَعْساً لَكَ مِنْ (دَنُّو) وَنَحْسَا
مَا جَزَاءُ ٱلشَّرِّ إِلَّا خَنْقَةٌ تَنْكِسُ رَأْسَا
(بِنْتُ دَنُّو) قَدْ أَرَاحَتْ مِنْكَ بَيْتاً لَيْسَ يَنْسَى
أَنَّهُ قَدْ كَانَ خُمًّا ثُمَّ صَارَ ٱلْيَوْمَ رَمْسَا

وَتَدْخُلُ ٱلْبِنْتُ ٱلْمِسْكِينَةُ إِلَى ٱلْخُمِّ عَلَى صَوْتِ قَوْقِ آخِرِ دَجَاجَةٍ بِيَدِ أُمِّهَا، فَتَنْزَعِجُ لِمَنْظَرِ هَذِهِ ٱلْمَجْزَرَةِ ٱلْفَظِيعَةِ وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَلْطِمُ وَجْهَهَا وَتَقُولُ :

ـ وَامُصِيبَتَاهُ ! إنَّ زَوْجِي دُجَاجِيٌّ فَقِيرٌ . وَهَذَا كُلُّ رَأْسِ مَالِهِ ، فَالْوَيْلُ لَنَا مِنْ جَرَّاءِ هَذَا ٱلْإِفْلاَسِ ! أُمَّاهُ ! مَا ٱلَّذِي حَمَلَكِ عَلَى أَنْ تؤْذِينَا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْإِجْرَامِ ؟

عَجَباً وَٱللهِ ! أَتَعْتَبِرِينَ ٱنْتِقَامِي لَكِ مِنَ ٱلدَّجَاجِ إجْرَاماً ؟ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بِعَيْنَيَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلَى ٱلسَّمَاءِ بَعْدَ كُلِّ جَرْعَةٍ يَشْرَبُهَا ، وَيُتَمْتِمُ بِٱلدُّعَاءِ عَلَيْكِ بِٱلشَّرِّ فَلَمْ أُطِقْ صَبْراً عَلَى هَذَا ٱلْمَنْظَرِ ، وَأَرَحْتُكِ مِنْ شَرِّ دُعَائِهِ فَكَيْفَ تَبْكِينَ عِوَضَ أَنْ تُزَغْرِدِي ؟

ـ أُزَغْرِدُ ! أُزَغْرِدُ لِحُلُولِ ٱلشَّقَاءِ بِدَارِي ؟

أَظُنُّ أَنَّكِ فَقَدْتِ تَوَازُنَكِ ، وَأَصْبَحْتِ لاَ تَعِينَ مَا تَقُولِينَ يَا أُمَّاهُ ، وَلَا تَقْرَئِينَ عَاقِبَةً لِمَا تَفْعَلِينَ ! ٱلْأَوْلَى بِكِ أَنْ تُبَادِرِي بِمُغَادَرَةِ هَذَا ٱلْمَنْزِلِ ٱلْكَئِيبِ بَعْدَمَا كَانَ فَرِحاً ، وَٱلشَّقِيِّ بَعْدَ مَا كَانَ سَعِيداً .

حَقًّا إنَّ أَبِي ٱلْمِسْكِينَ صَادِقٌ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَيْكِ عِنْدَمَا قَالَ : إنَّ « بِنْتَ دَنُّو » ٱلْمَشْؤُومَةَ !

كُلَّمَا حَاوَلَتِ ٱمْتِلاَكَ ٱلْقَلْبِ ، زَادَتْ هُمُومَهُ ، وَخَرَجَتْ

مِنْهُ مَنْبُوذَةً مَذْمُومَةً !

هَيَّا قُومِي وَعَجِّلِي بِالْخُرُوجِ قَبْلَ حُضُورِ زَوْجِي !

– تَمَهَّلِي، يَا بُنَيَّتِي، وَلاَ تَظُنِّي أَنَّنِي لاَ أَجِدُ الصَّدْرَ الْحَنُون

إِلاَّ فِيكِ ؟

تَمَهَّلِي ، فَسَأَجْمَعُ أَدْبَاشِي ، وَأَلُمُّ شَتَاتِي ، وَأَقْصِدُ « سُعَادَ

أَحَنَّ ، وَأَبَرَّ ، بَنَاتِي

وَغَادَرَتْ مَنْزِلَهَا مُتَثَاقِلَةَ الْخُطَى، قَاصِدَةً دَارَ ابْنَتِهَا السَّادِسَ

« سُعَادَ » زَوْجَةِ الْبَقَّالِ سَالِمٍ .

وَلَمَّا وَصَلَتْ طَرَقَتِ الْبَابَ فَفَتَحَتْهُ ابْنَتُهَا وَارْتَمَتْ عَلَيْهَ

تُشْبِعُهَا عِنَاقاً وَتَقْبِيلاً وَهْيَ تَقُولُ :

– يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ سَعِيدٍ بِمَقْدَمِكِ يَا أُمَّاهُ !

لِلهِ كَمْ تَمَنَّيْتُ مِثْلَ هَذِهِ الزِّيَارَةِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ !

اهْنَئِي بَالاً فَسَأَمْكُثُ حِذْوَكِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، لِأَنَّ أَبَاكِ سَافَرَ

مِنَ الْبَلَدِ ، وَأَطْرَدَنِي بَعْدَمَا وَاصَلَ مُخَاصَمَتِي أَيَّامًا مُتَتَابِعَةً ، لاَ

أَدْرِي مَا الَّذِي اعْتَرَاهُ أَثْنَاءَهَا ؟

– سَلاَمَتُكِ يَا أُمِّي ، وَسَلاَمَةُ أَبِي مَعَكِ ،

مَا ٱلَّذِي حَدَثَ ، وَمِمَّ تَشْكِينَ ؟

ـ أَشْكُو مِنْ تَصَرُّفِ أَبِيكِ ٱلشَّاذِّ ، ٱلَّذِي ثَقُلَتْ وَطْأَتُهُ عَلَيَّ بَعْدَ خُرُوجِكُنَّ مِنَ ٱلدَّارِ .

لَا تَتَّهِمِي أَبِي بِمِثْلِ هَذِهِ ٱلتُّهْمَةِ ؟

إِنَّ أَبِي رَجُلٌ طَيِّبُ ٱلْقَلْبِ ، يُحِبُّكِ مِثْلَمَا يُحِبُّنَا

ٱلْحَقُّ مَعَكِ يَا بُنَيَّتِي ؟ إِنَّهُ تَغَيَّرَ عَمَّا كُنْتِ تَعْهَدِينَهُ فِيهِ . فَقَدْ صَارَتْ لَهُ مَعِي فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ خُصُومَةٌ وَمِنْ أَجْلِ كُلِّ حَرَكَةٍ قِيلٌ وَقَالٌ ... وَلَوْلَا هَذَا ٱلتَّغَيُّرُ لَمَا بَارَحَ ٱلْبَلَدَ، وَأَطْرَدَنِي مِنْ مَنْزِلِ عُمْرِي شَرَّ طِرْدَةٍ. لِذَلِكَ قَصَدْتُكِ يَا سُعَادُ عَلَّنِي أَجِدُ فِيكِ ٱلْبِنْتَ ٱلْحَنُونَ ... وَأَجِدُ فِي دَارِكِ ٱلْمَأْوَى ٱلْأَمِينَ .

فَقَاطَعَتْهَا سُعَادُ قَائِلَةً : لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُكِ يا أُمَّاهُ ! فَإِنَّكِ سَتُقِيمِينَ عِنْدَنَا مَا طَابَ لَكِ ٱلْمُقَامُ مَعَ ٱلِاسْتِرَاحَةِ ٱلتَّامَّةِ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ ، وَمِنْ كُلِّ مَسْؤُولِيَّةٍ .

ـ شُكْراً لَكِ يَا ٱبْنَتِي ٱلْحَنُونَ !

لَا فُضَّ فُوكِ (لَا نَثَرَتْ أَسْنَانُكِ) وَلَا خَابَتْ فِيكِ ٱلظُّنُونُ

وَأَقَامَتْ أَيَّاماً كُلُّهَا مَسَرَّاتٌ ، تَنْعَمُ فِيهَا بِمُدَاعَبَةِ حَفِيدِهَا

عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ الرَّضِيعِ ، بِفكَاهَةِ صِهْرِهَا سَالِمٍ وَبِرِّ ٱبْنَتِهَا سُعَادَ وَذَاتَ يَوْمٍ ، ٱشْتَدَّ بُكَاءُ الرَّضِيعِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ، وَعَثَرَتْ أُمُّهُ عَلَى دُمَّلَةٍ بِهَامَتِهِ (أَعْلَى رَأْسِهِ) فَأَخَذَتْ تُعَالِجُهَا ، وَتَطْلِيهَا بِالْمَرَاهِمِ . فَسَأَلَتْهَا أُمُّهَا :

ـ مَاذَا تَفْعَلِينَ ؟ وَمَا ٱلَّذِي أَصَابَ ٱبْنَكِ الرَّضِيعَ حَتَّى تُلَطِّخِي هَكَذَا رَأْسَهُ بِهَذَا ٱلدُّهْنِ ٱلْمُؤْلِمِ ؟

ـ إِنِّي بِصَدَدِ مُعَالَجَةِ دُمَّلَةٍ بِرَأْسِهِ .

فَسَخِرَتْ (بِنْتُ دَنُّو) مِنْ كَيْفِيَّةِ مُعَالَجَتِهَا وَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ ٱلطِّبَّ عِنْدَنَا يَرْتَكِزُ عَلَى ٱلْكَيِّ ، وَهُوَ ، آخِرُ مَا يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ لِمُعَالَجَةِ ٱلدَّاءِ ، وَٱلتَّغَلُّبِ عَلَيْهِ .

وَكَثِيراً مَا كُنْتُ أَفْعَلُ هَكَذَا مَعَكُنَّ عِنْدَ إِصَابَتِكُنَّ بِمَرَضٍ .

ـ أَبَداً يَا أُمَّاهُ ، لَنْ أَكْوِيَ فَلْذَةَ كَبِدِي بِٱلنَّارِ ! إِنَّ نَفْسِي لَا تُطَاوِعُنِي عَلَى ذَلِكَ .

وَٱنْتَهَى ٱلْحَدِيثُ إِلَى هَذَا ٱلْحَدِّ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلدُّمَّلَةَ ، وَنَجَاعَةَ عِلَاجِهَا بَقِيَتْ عَالِقَةً بِذِهْنِ جَدَّتِهِ « بِنْتِ دَنُّو » ٱلَّتِي دَبَّ فِيهَا دَبِيبُ ٱلتَّدَخُّلِ مِنْ جَدِيدٍ ، فَأَصْبَحَتْ مُهْتَمَّةً بِهَا غَايَةَ ٱلِاهْتِمَامِ

وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَتْ ٱبْنَتُهَا « سُعَادُ » لِزِيَارَةِ إِحْدَى ٱلزَّوَايَا مَعَ قَرِيبَاتِهَا وَجِيرَانِهَا ، وَتَرَكَتِ ٱبْنَهَا فِي رِعَايَةِ جَدَّتِهِ ، وَمَسْؤُولِيَّةَ ٱلدَّارِ تَحْتَ تَصَرُّفِهَا . وَبَكَى ٱلرَّضِيعُ فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ « بِنْتُ دَنُّو » وَوَقَفَتْ أَمَامَ هَامَتِهِ تُفَكِّرُ .. وَتُفَكِّرُ .. وَتُقَدِّرُ . وَأَخِيراً .. ٱسْتَنْتَجَتِ ٱلْحَلَّ ٱلْمَنْشُودَ !

يَجِبُ أَنْ أُحْمِيَ هَذِهِ ٱلْمِسَلَّةَ (ٱلإِبْرَةَ ٱلْكَبِيرَةَ) وَأَكْوِيَ ٱلدُّمَّلَةَ بِهَا ، فَإِنَّهَا سَتَبْرَأُ فِي ٱلْحِينِ وَفِعْلاً أَدْخَلَتِ ٱلْكَانُونَ ، وَأَخَذَتْ تُحْمِي فِيهِ ٱلْمِسَلَّةَ وَهْيَ تَقُولُ :

لَا تَبْكِ ، إِذْ هَـذَا ٱلدَّوَاءْ سَيَكُونُ فِيهِ لَكَ ٱلشِّفَاءْ
يَا لَيْتَ أُمَّكَ عَالَجَتْكَ بِهِ وَأَبْعَدَتِ ٱلْعَنَاءْ
عَنْ فَلْذَتِي ، عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ، بِبُكَيِّهِ ، وَكَفَى دَوَاءْ !
ٱللهُ يَحْفَظُهُ ، وَيَقْبَلُ دَعْوَتِي وَلَهُ ٱلْبَقَاءْ

وَبَيْنَمَا هِيَ تُرَدِّدُ شِعْرَهَا ، وَتُحْمِي ٱلْمِسَلَّةَ لِتَحْمَرَّ ، إِذْ عَادَتِ ٱبْنَتُهَا سُعَادُ مُسْرِعَةً ، لِأَنَّ قَلْبَهَا كَانَ يُحَدِّثُهَا بِأَنَّ مَكْرُوهاً سَيَحُلُّ بِبَيْتِهَا ... وَفِعْلاً شَاهَدَتْ ... وَيَا سُوءَ مَا شَاهَدَتْ ! !

ٱلْكَانُونَ ... ! ٱلْمِسَلَّةَ ٱلْمُحْمَاةَ ... ! وَقَدْ أَمْسَكَتْهَا ٱلأُمُّ ،

وَقَصَدَتْ بِهَا فِرَاشَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ، وَهْيَ تَقُولُ :

لَعَلَّ ٱلنِّيَّةَ صَافِيَةٌ بَيْنَنَا يَا ٱبْنَتِي ... وَٱلْخَوَاطِرَ مُتَّحِدَةٌ !

سَأَقُومُ ٱلْآنَ بِكَيِّ دُمَّلَةِ ٱبْنِكِ ، وَسَتَرَيْنَ أَنَّهُ سَيَرْتَاحُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مُعَانَاةِ أَلَمِهِ إِلَى ٱلْأَبَدِ !

فَصَرَخَتْ سُعَادُ ، وَٱعْتَرَضَتْهَا نَوْبَةٌ مِنَ ٱلْجُنُونِ ، وَجَعَلَتْ



تصيحُ ، وتَصِيحُ ، وتَلْطِمُ وَجْهَهَا ، وَٱرْتمتْ عَلَيْهَا بِدُونِ شُعُورٍ ، وَٱفتَكَّتِ ٱلْمِسَلَّةَ مِنْ يَدِهَا ، وَهْيَ تَقُولُ :

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي نَجَّى ٱبْنِي مِنَ ٱلْمَوْتِ ..!

ٱلْوَيْلُ لِي يَا أُمَّاهُ ، وَٱلْمُصِيبَةُ لِزَوْجِي سَالِمٍ ، لَوْ نَفَّذْتِ مَا حَدَّثَتْكِ بِهِ نَفْسُكِ ، وَأَسْكَتِّ ٱبْنِي إِلَى أَبَدِ ٱلآبِدِينَ..!

ثُمَّ ٱنْكَبَّتْ عَلَى ٱلْمَهْدِ ، وَٱنْتَشَلَتْ مِنْهُ ٱبْنَهَا ، وَأَخَذَتْ تُعَانِقُهُ ، وتُقَبِّلُهُ ، وَتُكْثِرُ مِنَ ٱلْحَمْدِ وَٱلشُّكْرِ ...

كُلُّ هَذَا ، وَبِنْتُ دَنُّو مَبْهُوتَةٌ لِهَذَا ٱلْمَوْقِفِ ٱلشَّاذِّ ، ٱلصَّادِرِ عَنِ ٱبْنَتِهَا ، وَٱلَّذِي تَعُدُّهُ عُقُوقاً فِي حَقِّ ٱبْنِهَا ٱلْعَزِيزِ عَلَيْهَا ، وَتَقْصِيراً مِنْهَا فِي ٱكْتِشَافِ ٱلدَّوَاءِ ٱلنَّاجِعِ ..! لِذَلِكَ قَابَلَتْ صَنِيعَهَا هَذَا بِٱلاِسْتِهْزَاءِ وَهْيَ تَقُولُ :

عَجَباً لَكِ ! أُرِيدُ مُعَالَجَةَ ٱبْنِكِ بِالْكَيِّ لِأُزِيلَ عَنْهُ ٱلْأَلَمَ ، فَتَتَأَلَّمِينَ مِنْ ذَلِكَ ؟

إِي وَٱللهِ ! عَجَباً لَكِ وَلِأَخَوَاتِكِ ! أَسْعَى لَكُنَّ فِي ٱلسَّعَادَةِ، وَٱلْهَنَاءِ ، فَتَنْقِمْنَ عَلَيَّ ، وَتَلْتَحِقْنَ بِصَفِّ ٱلْمُعَارَضَةِ وَرَاءَ أَبِيكُنَّ ..؟ إِذَنْ ...

سَأَجمَعُ أَدْبَاشِي ، وَأَلمُّ شتَاتِي ،
وَأَقصِدُ زَيْنَبَ أَحنَّ وأَبرَّ بنَاتِي !

ثُمَّ خَرَجَتْ ، وَسَارَتْ فِي طَرِيقِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلْمُجَاوِرَةِ لِبَلَدِهَا أَيْنَ تَسْكُنُ ٱبْنَتُهَا ٱلسَّابِعَةُ « زَيْنَبُ » زَوْجَةُ ٱلْعَامِلِ ٱلْفِلاَحِيِّ « مِصْبَاحٍ » .



وَنظَراً لِطُولِ ٱلْمَسَافَةِ ، فَقَدِ ٱضْطُرَّتْ « بِنْتُ دَنُّو » إِلَى أَنْ تَرْتَاحَ بِقُرْبِ بِرْكَةِ مَاءٍ كَانَ ضَوْءُ ٱلْقَمَرِ يَنْعَكِسُ عَلَى سَطْحِ مائِهَا، فَيُؤْنِسُ ٱلضَّفَادِعَ ٱلْمُنَقْنِقَةَ ، مِمَّا جَعَلَ ٱلْعَجُوزَ تَطْرَبُ لِهَاتِهِ ٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلنَّغَمَاتِ ، وَتَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى أَنْ يَسَّرَ لَهَا ٱلْاِسْتِمَاعَ إِلَى تَرْتِيلِ كَلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِنْ طَرَفِ تَلَامِيذِ هَـٰذَا ٱلْكُتَّابِ ، ٱلْمُوَاصِلِينَ تَعَلُّمَهُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ .

وَبَعْدَ ٱلْاِسْتِرَاحَةِ مِنْ تَعَبِ ٱلسَّيْرِ ٱلطَّوِيلِ ، ٱسْتَأْنَفَتْ مُوَاصَلَتَهُ فِي طَرِيقِهَا إِلَى دَارِ ٱبْنَتِهَا ٱلَّتِي لَمْ تَصِلْهَا إِلاَّ بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ ، بَعْدَ مَا هَدَأَتْ جَمِيعُ ٱلْحَرَكَاتِ ، وَسَادَ ٱلْقَرْيَةَ سُكُونُ ٱللَّيْلِ ٱلْمُخِيفِ .

وَعِنْدَئِذٍ طَرَقَتِ ٱلْبَابَ بِعُكَّازَتِهَا طَرْقاً مُتَوَاصِلًا أَزْعَجَ ٱبْنَتَهَا فَأَسْرَعَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى ٱلْبَابِ يَسْتَفْسِرَانِ عَنِ ٱلطَّارِقِ وَمَا أَنْ سَمِعَتْ صَوْتَ أُمِّهَا حَتَّى بَادَرَتْ بِفَتْحِهِ ، وَٱرْتَمَتْ عَلَيْهَا تُشْبِعُهَا عِنَاقاً وَتَقْبِيلاً . وَتَشَوَّشَ ٱلصِّهْرُ مِنْ قُدُومِهَا فِي هَاتِهِ ٱلسَّاعَةِ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ ٱللَّيْلِ ، وَسَأَلَتْهَا ٱبْنَتُهَا عَنْ سَبَبِ هَاتِهِ ٱلزِّيَارَةِ ٱلْمُفَاجِئَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ ٱلسَّاعَةِ ٱلْمُرِيبَةِ ، فَٱرْتَبَكَتْ ، وَٱضْطَرَبَتْ

وَقَالَتْ : إِنَّهَا سَئِمَتِ ٱلْحَيَاةَ وَلَنْ تَعُودَ إِلَى رُؤْيَةِ ٱبْنَتِهَا سُعَادَ ٱلَّتِي لَمْ تَفْرَحْ بِقُدُومِهَا ، وَلَمْ تَحْفِلْ بِضِيَافَتِهَا

وَلِذَلِكَ قَرَّرَتْ أَنْ تَقْصِدَ ٱبْنَتَهَا « زَيْنَبَ » عَسَاهَا أَنْ تَتَسَلَّى بِجِوَارِهَا ، وَأَنْ تُقَضِّيَ مُـــدَّةً فِي ضِيَافَتِهَا تَنْسَى فِيهَا جَمِيعَ هُمُومِهَا ، وَآلاَمِهَا ، وَأَحْزَانِهَا .

فَرَحَّبَتِ ٱبْنَتُهَا بِهَا، وَقَدَّمَتِ ٱلْعَشَاءَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَأَحْضَرَتْ لَهَا فِرَاشاً نَامَتْ فِيهِ نَوْماً هَادِئاً لَذِيذاً كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَقَعْ ...!

وَمِنَ ٱلْغَدِ ٱسْتَفَاقَ وَلَدُهَا الصَّبِيُّ (عَبْدُ ٱللهِ) فَفَرِحَ بِجَدَّتِهِ وَبَقِيَ طُولَ ٱلنَّهَارِ يَلْعَبُ بِجِوَارِهَا . فَتَعَجَّبَتْ مِنْ وُجُودِهِ بِٱلْمَنْزِلِ ، فِي حِينِ أَنَّ سِنَّهُ تَسْمَحُ لَهُ بِٱلذَّهَابِ إِلَى ٱلْكُتَّابِ ، وَلَمَّا أَعْلَمَتْهَا ٱبْنَتُهَا بِأَنَّ مُؤَدِّبَ صِبْيَانِ ٱلْقَرْيَةِ ، قَدْ تَغَيَّبَ عَنْهَا مُنْذُ مُـــدَّةٍ ، أَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا بِأَنَّهَا صَادَفَتْ فِي ٱلطَّرِيقِ كُتَّاباً بِهِ مُؤَدِّبُ صِبْيَانٍ ، مُخْلِصٌ فِي عَمَلِهِ ، يُعَلِّمُ تَلاَمِيذَهُ تَعْلِيماً صَحِيحاً ، بِصُورَةٍ تَجْعَلُهُمْ لاَ يَنْقَطِعُونَ عَنِ ٱلتَّرْتِيلِ ، وَيُوَاصِلُونَ ٱلتِّلاَوَةَ كُلَّمَا ٱسْتَحَثَّهُمْ عَلَى ٱلاِسْتِزَادَةِ مِنْهَا ...

فَلاَ تَحْرِمِي ٱبْنَكِ مِنْ تَلَقِّي ٱلْعِلْمِ عَلَى يَدَيْ هَذَا ٱلْمُؤَدِّبِ ٱلْحَاذِقِ ٱلْمَاهِرِ !

وَمِنَ ٱلْغَدِ أَلَحَّتْ عَلَيْهَا فِي مُصَاحَبَتِهِ لِهَذَا ٱلْكُتَّابِ، فَأَذْعَنَتِ ٱلْبِنْتُ نُزُولاً عِنْدَ طَلَبِهَا ، وَرَغْبَةِ وَلَدِهَا (عَبْدِ ٱللهِ) فِي ٱلذَّهَابِ إِلَيْهِ .

وَخَرَجَ مَعَ جَدَّتِهِ ، بَعْدَ أَنْ تَسَلَّمَتْ مِنَ ٱلْبِنْتِ هِبَةً مَالِيَّةً لِلْمُؤَدِّبِ ، وَأَدَاوَتِ ٱلْوَلَدِ ، وَفَطُورَهُ .

وَوَدَّعَ ٱلصَّبِيُّ أُمَّهُ ٱلَّتِي بَكَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَى فِرَاقِهِ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ لِذَلِكَ سَبَباً .

وَسَارَ (عَبْدُ ٱللهِ) مَعَ جَدَّتِهِ فِي كَنَفِ ٱلسَّلَامَةِ وَٱلِاطْمِئْنَانِ وَلَمْ يَدْرِ ٱلْمِسْكِينُ مَا تُخْفِيهِ لَهُ ٱلْأَقْدَارُ .



وَسُرْعَانَ مَا وَصَلاَ ٱلبِرْكَةَ حَتَّى قَالَتْ لَهُ فِي هُدُوءٍ .

ـ هَذَا هُوَ ٱلْكُتَّابُ يَا بُنَيَّ !

وَلَكِنَّ ٱلْمِسْكِينَ ٱضْطَرَبَ وَسَأَلَهَا فِي وَدَاعَةٍ وَبَرَاءَةٍ :

ـ أَيْنَ ٱلْمُؤَدِّبُ وَٱلتَّلاَمِيذُ يَا جَدَّتِي ؟

ـ ٱلْجَمِيعُ هُنَا فِي هَذَا ٱلْكُتَّابِ !

هَذِهِ بِرْكَةٌ، وَلَيْسَتْ بِكُتَّابٍ يَا جَدَّتِي ، وَخَافَ وَهَمَّ بِٱلْهُرُوبِ، غَيْرَ أَنَّهَا مَسَكَتْهُ بِشِدَّةٍ ، وَهَمَّتْ بِإِلْقَائِهِ فِي غَيَابَاتِ ٱلْبِرْكَةِ وَهِيَ تَقُولُ :

مُؤَدِّبِي ، مُؤَدِّبِي إِلَيْكَ ذَلِكَ ٱلصَّبِي
فَٱحْرِصْ عَلَى تَعْلِيمِهِ كَيْ لاَ يَشِبَّ كَالْغَبِي
عَلِّمْهُ ، إِنَّهُ فَتًى خَفِيفُ ذِهْنٍ ، وَأَبِي
وَكُنْ لَهُ مُرَبِّيًا وَكُنْ لَهُ خَيْرَ أَبِ

وَبَيْنَمَا هِيَ تُنْشِدُ شِعْرَهَا ، وَعَبْدُ ٱللهِ يَصِيحُ ، وَيُحَاوِلُ ٱلتَّمَلُّصَ مِنْ جَدَّتِهِ ، إِذِ ٱنْدَفَعَ مِنْ مُسْتَشْفَى ٱلْمَجَانِينِ ٱلْمُجَاوِرِ لِلْبِرْكَةِ ، أَحَدُ ٱلْفَارِّينَ ، وَٱلْقَى بِنَفْسِهِ وَسَطَ ٱلْمِيَاهِ ، فَارْتَاعَت

بِنْتُ دَنُوِّ لِهَذَا ٱلْمَشْهَدِ ٱلْمُرِيعِ : رَجُلٍ يَتَخَبَّطُ وَسَطَ ٱلْمِيَاهِ ، وَهُوَ يُعَانِي سَكَرَاتِ ٱلْمَوْتِ ، وَهِيَ عَاجِزَةٌ عَنْ مَدِّ يَدِ ٱلْمُسَاعَدَةِ إِلَيْهِ لِإِنْقَاذِهِ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخَذَتْ تَصِيحُ ، وَتُنَادِي ، وَتَسْتَصْرِخُ مَنْ يُنْقِذُ هَذَا ٱلْغَرِيقَ ٱلْمِسْكِينَ ... وَكَانَ لِصَرَخَاتِهَا صَدًى هَبَّ لَهُ أَعْوَانُ ٱلْمُسْتَشْفَى ، وَأَنْقَذُوهُ مِنَ ٱلْمَوْتِ غَرَقاً ، كَمَا كَانَ لِصَدْمَةِ هَذَا ٱلْمَنْظَرِ ، وَقْعٌ عَظِيمٌ رَجَّ إِدْرَاكَهَا وَأَعَادَ إِلَيْهَا رُشْدَهَا ٱلَّذِي فَقَدَتْهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ ، يَوْمَ شَاهَدَتْ نَفْسَ ٱلْمَنْظَرِ فِي غَرِيقٍ آخَرَ لَمْ تَرْحَمْهُ مِيَاهُ هَذِهِ ٱلْبِرْكَةِ وَلَمْ يَحْظَ بِعَطْفِ أَحَدٍ !

وَهُنَا تَشَبَّثَتْ بِحَفِيدِهَا عَبْدِ ٱللهِ ، وَأَخَذَتْ تُعَانِقُهُ وَتَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى وُجُودِهِ بِجَانِبِهَا ...

وَعِنْدَمَا أَخَذَ يُحَدِّثُهَا عَمَّا كَانَتْ تَنْوِي بِهِ لَمَّا قَادَتْهُ إِلَى هَذِهِ ٱلْبِرْكَةِ ... كُتَّابِهَا ٱلَّذِي حَسِبَتْ ضَفَادِعَهُ تَلَامِيذَ يُرَتِّلُونَ كَلَامَ ٱللهِ بِٱلنَّقِيقِ، ٱسْتَغْرَبَتْ صُدُورَ مِثْلِ هَذَا ٱلْفِعْلِ مِنْهَا،وَحَمِدَتْ رَبَّهَا عَلَى نَجَاتِهِ مِمَّا كَانَ يَنْتَظِرُهُ مِنْ سُوءِ ٱلْمَصِيرِ ...

وَعَادَتْ إِلَى ٱلْبَيْتِ ، وَيَدُهَا لَا تُفَارِقُ يَدَهُ ، وَهِيَ بَيْنَ

ٱلْخُطْوَةِ وَٱلْأُخْرَى ، تَشْكُرُ رَبَّهَا ، وَتُثْنِي عَلَيْهِ ..

وَمَا أَنْ رَأَتِ ٱبْنَتَهَا ، حَتَّى ٱنْهَمَرَتِ ٱلدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، بَعْدَ أَنْ جَفَّتْ سَنَوَاتٍ ... وَٱنْدَفَعَتْ فِي ٱلْبُكَاءِ دُونَ ٱنْقِطَاعٍ ، وَكَانَ بُكَاءَ ٱلْفَرَحِ ..!

فَبُهِتَتِ ٱبْنَتُهَا مِمَّا رَأَتْ ، وَتَسَاءَلَتْ : أُمَّــاهْ ! مَاذَا جَدَّ يَا تُرَى ؟

فَحَدَّثَهَا ٱبْنُهَا عَبْدُ ٱللهِ بِمَا حَدَثَ ...

وَبِذَلِكَ عَلِمَتِ ٱلْبِنْتُ أَنَّ ٱلصَّدْمَةَ ٱلَّتِي أَفْقَدَتْ أُمَّهَا إِدْرَاكَهَا عُولِجَتْ بِصَدْمَةٍ أُخْرَى ، أَعَادَتْ إِلَيْهَا رُشْدَهَا ...

فَلَمْ تَتَمَالَكْ أَنْ ضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا تُشْبِعُهَا عِنَاقاً وَتَقْبِيلاً .. وَأَخَذَتْ تُمْطِرُهَا وَابِلاً مِنَ ٱلْأَسْئِلَةِ عَنْ حَالَةِ أَبِيهَا ، فَأَجَابَتْهَا بِأَنَّهُ ٱشْتَرَى كَمِّيَّةً مِنَ ٱلصُّوفِ ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَصْنَعَ لَهُ بُرْنُساً جَدِيداً ، وَأَكْسِيَةً وَأَغْطِيَةً ... وَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُ مُنْذُ ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ.

ثُمَّ قَالَتْ : بِمَا أَنَّكِ ٱلْآنَ تُذَكِّرِينَنِي بِهِ ، فَلَا بُدَّ لِي مِنَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَى دَارِي ، فِي ٱلْحَالِ ، لِأُلَبِّيَ رَغَبَاتِهِ !

وَهُنَا قَرَّرَتْ زَيْنَبُ مُصَاحَبَةَ أُمِّهَا إِلَى دَارِ أَبِيهَا ، لِتَطْمَئِنَّ

عَلَيْهَا ، لِأَنَّ بَعْضَ ٱلْهَوَاجِسِ مَازَالَتْ تُسَاوِرُهَا مِنْ أَجْلِ سُلُوكِهَا .

وَلَمَّا عَادَتَا مَعاً إِلَى ٱلْبَيْتِ ، كَانَ ٱلْأَبُ قَدْ عَادَ مِنْ رِحْلَتِهِ ، فَأَعْلَمَتْهُ زَوْجَتُهُ بِنْتُ دَنُّو بِأَنَّهَا عَادَتْ مُسْرِعَةً مِنْ دَارِ ٱبْنَتِهَا زَيْنَبَ لِتُبَاشِرَ ٱلصُّوفَ، وَتُحْضِرَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . فَعَلِمَ بِذَلِكَ ، وَبِمَا قَصَّتْهُ ٱلْبِنْتُ ، وَحَدَّثَتْ بِهِ ٱلزَّوْجَةُ ،أَنَّهَا ٱسْتَرْجَعَتْ إِدْرَاكَهَا وَرُشْدَهَا .

فَحَمِدَ ٱللهَ ، وَجَمَعَ بَقِيَّةَ بَنَاتِهِ فِي دَارِهِ لِلتَّمَتُّعِ بِمَجَالِسِ أُنْسِهِنَّ ، وَمَسَرَّاتِهِنَّ مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

ثُمَّ أَخْرَجَ مَا تَبَقَّى فِي ٱلْقِدْرِ مِنْ دَنَانِيرَ ، وَوَزَّعَهُ سَوِيًّا بَيْنَهُنَّ عَلَى شَرِيطَةِ أَنْ يُصْرَفَ ٱلْبَعْضُ مِنْهُ فِي تَعَلُّمِهِنَّ وَتَعَلُّمِ أَبْنَائِهِنَّ ، وَيُودَعَ ٱلْبَعْضُ ٱلْآخَرُ فِي صُنْدُوقِ ٱلِادِّخَارِ شُكْراً لِمَا مَنَّ ٱللهُ بِهِ عَلَى ٱلْجَمِيعِ مِنْ فَرَجٍ بَعْدَ ٱلشِّدَّةِ ، وَيُسْرٍ بَعْدَ ٱلْعُسْرِ!

فَنَطَقَتْ بِنْتُ دَنُّو قَائِلَةً : وَأَنَا ؟ أَلَا يَجُوزُ لِي أَنْ أَتَعَلَّمَ رَغْمَ كِبَرِ سِنِّي ؟ فَأَجَابَهَا « ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ » : بَلَى ! لِأَنَّ ٱلنَّبِيءَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ٱطْلُبُوا ٱلْعِلْمَ مِنَ ٱلْمَهْدِ إِلَى ٱللَّحْدِ .

وَضحِكَ ٱلْجَمِيعُ لِطَلَبٍ تَقَدَّمَتْ بِهِ أُمُّهُنَّ لِلأَبِ كَيْ يَشْتَرِيَ
لَهَا مِحْفَظَةً وَكِتَاباً وَلَوْحاً ...



وَعَلَى هَذَا ٱفْتَرَقَ ٱلْجَمِيعُ ...

وَعَاشَ « ٱلْعَمُّ حِمْدَانُ » بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ زَوْجَتِهِ « بِنْتِ دَنُّو »
بَقِيَّةَ عُمُرِهِ فِي سَعَادَةٍ شَامِلَةٍ ، وَهَنَاءٍ وَفِيرٍ ...!

مجموعة قصص الأطفال

الصّادرة في حجم 21 × 27

العصفور والملك
الفارس الصغير
قطي سوسو
النمر والسلحفاة
الأميرة عطاف
قاهر الذئاب
طرزان وشيطا
ضياء القمر
سر النجاح
فويلتي
عمي سعيد السنفاج
أبو سنام
أمي سيسي
مغامرات بنت دنو
ابتسام ثريا
طيور وزهور

قميحة
أضغاث أحلام
العصفور الجريح
عمار صاحب الحمار
المعزة المعزوزية
الفراشة الراقصة
الأسد والبعوضة
حب الكدر
عمي الدحداح بياع التفاح
الديك والماعز والكبش والحمار
مستحضر الجنية
الوسام
الحصان الوفي
صراع في الحقول
من أدوار جحا
الصياد الصغير

الأرنب العنيد
انتقام الأرنب
الأمير فيروز
بنت صياد السمك
الزوجة المطيعة
ابن الأرض في السماء
العصفور الأخضر
حكايات جدتي
الجار الحسود
أغاني الطفولة
الطفل والفراشة الذهبية
الأهازيج (شعر للتلاميذ)
عليسة (مسرحية شعرية)
حمار جكتيس

سحب من هذا الكتاب 20.000 نسخة

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج - تونس

السعر : 0.900 د. ت